الوزير يوافق على الحوار

عظيم.... الرجوع إلى الحق فضيلة، وأنت جدير بهذا الفضل، ولا تنسى لحظة أن هؤلاء المُعلمين رجالك، وسلاحك فى المعركة القادمة، وهم أهل لها..... بهم سوف ينهض التعليم، وتتحقق الغاية، إنى أراك مُتَحَمّسًا وصادقًا... فانقل لهم حماسك، وشُد على يدهم وساعدهم وأرجع لهم كبرياءهم وكرامتهم ليكونوا طلائع المسيرة إلى التقدم على طريق النجاة.... طريق إصلاح التعليم.

- سيدى الوزير.... هل تسمح بلقاء مع سيادتك؟

❖ هل أنت صحفى أو مندوب قناة فضائية؟

- لا هذا ولا ذاك..... أنا مدير سابق فى التربية والتعليم.

❖ ما دمت مدير سابق، فليست لك عندى مصلحة!

- أنا ليست لى مصلحة خاصة، ولكن أهدف من لقائى إلى المصلحة العامة.... أنت وزير للتربية والتعليم، وأنت ترى بنفسك حال التربية والتعليم.... لم تعد هناك تربية، ولم يعد هناك تعليم!

❖ لهذا اختارنى المسئولون لأتولّى الوزارة، وإن شاء الله سوف أحقق التربية والتعليم!

- تقصد اختارك الأوصياء!

❖ الأوصياء؟!..... ماذا تقول؟..... حاذر من كلامك وإلا وقعت فى المحظور!

- أنا لا أقصد الإهانة.... أو النقد.... فقط أريد أن ألفت النظر وأقول الكلمة المخلصة، ثم أمضى!

❖ تمضى إلى أين؟

- إلى كهف المعاش اللعين!

❖ لماذا تصفه هكذا؟..... المعاش للراحة بعد عمل الواجب، وأداء الرسالة، وخدمة الوطن طوال السنين.

- وهل يمنع الخروج على المعاش من خدمة الوطن؟

❖ كيف تخدم الوطن بعد الستين؟

- اخدمه بالعقل والفكر والخبرة والتجربة..... هل تُنكر ذلك؟

❖ لا... طبعًا.... ولكن كيف؟

- لا تهم الكيفية، ولكن يهم الاستعداد أولاً، والقُدرة ثانيًا، والاهتمام ثالثًا..... أنا مثلاً مدير مدرسة ثم مدير إدارة سابق، وقبل ذلك مُعَلّم..... قضيت فى حقل التعليم أكثر من أربعين عامًا.... بالتأكيد عندى تجارب حيّة، وخبرات عديدة، وأعرف فى مجالى كل صغيرة وكبيرة، وأرى على الطبيعة أشياء لا يراها الخبراء

الجالسون فى المكاتب المُكيَّفة فى الوزارة..... وسيادتك مثلاً.... لم تدخل مدرسة فى حياتك إلا وأنت تلميذ أو ولى أمر، وبعد أن أصبحت وزيرًا..... لا تؤاخذنى.... فأنت لست من أهل التربية والتعليم، ولا أنت خبير تربوي، وهبطت على الوزارة فجأة وأنت تعتقد أن الأمر هو انضباط المدارس والحضور والغياب والطابور والنقل والتنكيل والضرب والتشريد..... لا تعرف شيئًا عن مشاكل التعليم المزمنة..... معلوماتك وخبراتك من واقع التقارير، ومن حملة المباخر والمهللين، ولكن خبرتى أنا من الواقع، ومن المعايشة، ومن التطبيق، ومن النتائج أيضًا.... يجب أن تسمعنى.... ليس ذلك عيبًا، أو انتقاصًا من الهيبة والرفعة والمكانة العالية.

❖ بالرغم من القسوة فى الكلام، ولكنى أراه كلامًا معقولاً..... صدقنى لست غاضبًا، ولكن ماذا تُريد أن تقول؟

- المواضيع كثيرة، والتجارب عديدة.... لا يكفيها يوم أو يومان.... بل ربما يمتد الأمر إلى أسابيع وشهور.

❖ ولكن كيف؟..... أين لى بهذا الوقت؟..... أنا دائمًا مشغول... اجتماعات.... لقاءات.... سفريات.... زيارات....

- تقصد كبسات؟!

❖ أنت تردد ما يقوله الناس!

- بل ما أنا مُقْتنع به ورأيته، مثلما رآه كل الناس.... على العموم سوف يأتى الكلام عن ذلك الموضوع فى حينه..... ولكن أرجوك أن تُخَصص لى وقتًا كل يوم أو كل أسبوع.... لن نتجاوز الساعة أو ربما أقل..... سوف نتحدث عن موضوع يخص التعليم..... لن تندم أبدًا.... سوف أصحبك إلى مدرسة..... لن يكون على بابها المستقبلين الذين جاءوا من أجل الزيارة المفاجئة ليرحبوا بك....

سوف ندخلها لنراها على الطبيعة بلا تزويق ورتوش!

سوف تلتقى برجالك المعلّمين والمديرين لترى على الطبيعة همومهم ومشاكلهم، سوف يصيبك الذهول مما يُعانونه، ويلاقونه من جحود وإهمال!

سوف نقف فى الطابور، وتلتقى بأولياء الأمور.

سوف تسمع بأذنيك آراء المعلمين والتلاميذ وأولياء الأمور فيما يُسمونه بنظام التقويم الشامل، وكم هو نكبة على التعليم!

سوف ترى بعينيك المهزلة التى تضيع بسببها الأموال، وتضيع الجهود، فيما يسمى الهيئة القومية للجودة، وكم هى مهزلة، وضحك على الذقون!

سوف ترى بعينيك أن مبنى كامل مُكَوّن من خمسة أدوار نفذته هيئة الأبنية التعليمية، وبه ألف تلميذ ليس به دورة مياه واحدة بحجّة أن دورات المياه تتلف المبنى!..... هل أخبرك أحد بهذه الفضيحة؟!

سوف تلتقى بالخبراء الحقيقيين، وليس رجال الوزارة الذين يبرعون فى كتابة الحلول، والتقارير من وحى الخيال، ويؤكدون دومًا..... لحفظ الكراسى والوصول إلى المناصب بأن كل شىء تمام، والتعليم فى تقدم وازدهار!!

سوف نلتقى سويًا بكل ما يقف عقبة فى سبيل التقدم الحقيقى فى التعليم..... سوف يكون كلامًا صريحًا... ليس فيه تزويق أو إرضاء.... فذلك أول الطريق.

❖ أول الطريق..... أى طريق تقصد؟

- طريق النجاة..... النجاة مما يعانيه الوطن من تخلّف وانحدار، وإنقاذ المجتمع مما يعانيه من شرور!..... ألست معى أننا نعيش أزمة أخلاقية مدمرة فى كل أمور حياتنا؟

❖ لا أنكر ذلك، فأنا مواطن فى هذا البلد..... أعيش همومه ومشاكله.

- كل الخبراء أجمعوا أن سبب ما نعانيه هو أزمة التعليم..... التعليم الردىء الذى نتجرّعه من عقود ظهرت نتائجه وآتى ثماره اليوم..... مفاسد ومخازى ومهازل أخلاقية وجرائم غريبة لم يعهدها مجتمعنا، وسلوكيات رديئة.

من أسبوع احتفلت مصر كلّها بسائق أمين عثر على حافظة نقود لأحد السائحين.... صُورتَه فى كل الجرائد، وأفسحت له القنوات الفضائية الساعات تحتفل به والوزير يشد على يده معجبًا ومهنئًا وشاكرًا، وينظر الناس إليه فى إعجاب شديد، وكأنه أعجوبة من آثار العهد القديم!!

أصبحت الرشوة واقع فى حياتنا..... هى الطريق إلى تقضية المصالح والوصول إلى المناصب، ولم يعد أحد يستنكرها، بل يأتى الناس لها بالمبررات!

أصبحنا نسمع عن أنواع جديدة من السرقات..... سرقات أراضى الدولة، وأموال البنوك، وعن الصناديق الخاصة، والمرتبات بالملايين!

مصائب لا حصر لها... كلّها بسبب انحدار التعليم، وتفشى الجهل، فهبط مستوى الأخلاق، ولم نعد نشاهد إلا فنًا رخيصًا، وألفاظًا جارحةً، وشباب يعيش فى غيبوبة

الضياع والإهمال!

ألست معى أن الوقت قد حان للنهوض من الكبوة، وإنقاذ ما يُمكن إنقاذه؟!

❖ إنك ترسم صورة مُزعجة لما هو قائم من حال!

- بل هى أكثر سوادًا مما تتخيل.... لذلك أرجوك أن تقبل عرضى لترى بعضًا مما أراه....

سوف ترى كل شىء من الداخل، وبلا رتوش أو تزويق، وبلا تقارير وإحصاءات، وحتى لا يرُم الجرح على الفساد فيستحيل العلاج!

أنت مثلا أثناء الكبسة المشهورة.... غضبت وصرخت، وبدا الوضع على أنك فوجئت، ووصفت مكان العلم بالمزبلة، وما يجرى بالمهزلة، ووجدت الحل الناجع فى التنكيل بالمدير والمعلّمين ووقّعت الجزاءات وظلمت الناس وشَهّرت بهم على الهواء، ولمعت فلاشات الكاميرات، وصفّق بعض الناس وهللوا..... فماذا حدث بعد ذلك؟.... هل انصلح الحال، وانتهت السلبيات واستقرت الأمور؟!

عالجت المشكلة بمشاكل، وضغَطت فقط على موضع الألم، ثم رجعت إلى الوزارة، وانشغلت بآثار الزيارة، واستمتعت بالإشادة!

❖ أرجوك لا تذكرنى بهذه الزيارة..... هذا موضوع لا أتمنى أن أتذكّره فقد عانيت منه الكثير!

- عظيم.... الرجوع إلى الحق فضيلة، وأنت جدير بهذا الفضل، ولا تنسى لحظة أن هؤلاء المُعلمين رجالك، وسلاحك فى المعركة القادمة، وهم أهل لها..... بهم سوف ينهض التعليم، وتتحقق الغاية، إنى أراك مُتَحَمّسًا وصادقًا... فانقل لهم حماسك، وشُد على يدهم وساعدهم وأرجع لهم كبرياءهم وكرامتهم ليكونوا طلائع المسيرة إلى التقدم على طريق النجاة.

❖ الحقيقة أن كلامك أثار فضولى وحماسى..... سوف أحدد لك وقتًا نجلس فيه سويًا..... كل يوم أو كل أسبوع.... حسب الظروف.... متى تريد أن تبدأ؟

- من الغد.... لا وقت للتأجيل.

❖ بل بعد غد، فعندى غدًا زيارة لمدرسة ابتدائية فى إمبابة.

- على بركة الله.

obeikandl.com

(١)
زيارة سرِّية

فى يوم كانت عَواصفه مُزَمجرة، وأمطاره هاطلة، ورياحَه عاتية، وبَرْدَه يُجَمّد الأبدان..... هَبَطَت لجنة من لجان المُتابعة على المدرسة الضحية!

obeikandl.com

- أرى مسحة من الحزن على وجهك.

- لم أكن أتخيل ما حدث.

- ياه... لابد أنه شيء مُفزع..... أرى آثاره على وجهك.

- كان زمان ولى الأمر يحترم المدرسة، ويعامل العاملين فيها بكل احترام، ويحمل التقدير لدور المدرسة فى تعليم أبنائه.

أذكر والدى رحمة الله عليه بأنه كان يذكر أساتذته بالخير والثناء، وإذا التقى أحدًا منهم يكاد يحمله فوق رأسه احترامًا وتقديرًا وحُبًّا، وإذا جاءنى المدرسة وأنا صغير لأمر ما لا أكاد أسمع صوته، وهو يُحادث المسئولين فى المدرسة، ويُدهشنى معاملته لهم وهو صاحب المنصب الرفيع والهيبة.

- ذلك هو الشيء الطبيعى..... لا بد أن يَشْعر التلميذ باحترام والده للمعلمين والمدرسة حتى يتعلم ذلك ويترسّخ فى ذهنه.

- ما رأيته بالأمس أدهشنى.

- ماذا حدث؟ قُل لى بربك..... شَوّقتنى.

- كنت بالأمس فى زيارة مدرسة ناحية الشرابية.... أردت أن تكون الزيارة مفاجئة.... لم أصطحب أحدًا من المسئولين.... دخلت المدرسة كأى مُواطن عادى.... ولى أمر.... لأرى على الطبيعة أحوال المدرسة!

- هذا شيء طيب، وإن كان غير مألوف.

- دخلت من البوابة.... أنت تعرف أن شكلى ليس مألوفًا لأننى وزير جديد، ولم يكن لى تواجد إعلامى قبل ذلك.

- أعرف..... ثم ماذا؟

- وجدت مسئول الأمن..... أمامه منضدة صغيرة.... وعليها دفتر كبير ناولنى إياه بلا اهتمام، وقال وهو لا ينظر لى " سجل بياناتك من فضلك".

"..... أمسكت بالقلم، وترددت قليلاً.... ماذا أكتب؟ راودتنى فكرة.... نفذتها فى الحال فكتبت فى خانة الاسم "سمير محمود الغسال"

- لكن ذلك ليس اسمك.

- أعرف.... ولكن انتظر قليلاً.... ثم كتبت فى خانة الوظيفة كهربائى، وفى خانة رقم البطاقة كتبت أرقام من تأليفى، ثم ناولت موظف الأمن دفتر الأمن، فأخذه منى ووضعه جانبًا بدون أن ينظر إلى ما كتبته، وأشار لى بالدخول إلى داخل المدرسة.... لم أتحرّك من مكانى..... فنظر إلىّ الموظف فى دهشة، وردد ثانيًا "اتفضل حضرتك"..... قلت له "ألا تريد أن تتحقق من بياناتى التى كتبتها؟".... رأيت الدهشة الغامرة على وجه الموظف، ونظر بسرعة إلى المكتوب فى الدفتر، ثم قال "أنت كتبت البيانات كما أرى..... اتفضل ادخل"..... سألته فى هدوء وأنا لا أبرح مكانى "من أدراك أن البيانات التى كتبتها صحيحة؟".... فسأل الموظف أو المدرس فى استنكار وقال متبرمًا "ولماذا تكتب بيانات غير صحيحة" قلت وأنا أتفرس ملامحه القلقة "ربما لغرض فى نفسى، يُمكن أن أرتكب شيئًا مخالفًا أو غير قانونى، ولا أريد أن أفصح عن هويتى"

- كلام سليم ومنطقى..... كان عليه أن يتحقق من شخصيتك من واقع بطاقتك الشخصية..... هذا هو المفروض.

- هذا بالضبط ما قُلته له، ولكنه هز رأسه ومط شفتيه، وقال باستخفاف "والله يا أستاذ عندما نطلب ذلك نتعرض لمضايقات وسخافات من أولياء الأمور لا تتخيلها تصل أحيانًا إلى حد العراك، وتبادل السباب.... تخيل أن بعض أولياء الأمور يرفضون تسجيل بياناتهم، ويعتبرون ذلك إهانة لهم!

قلت للموظف "فى هذه الحالة لا تسمح له بالدخول" فرد علىّ فى استغراب "وهل أستطيع؟!.... سوف أظل طول النهار فى مشاكل، وخناقات وقلّة قيمة!

قلت بسرعة مستنكرًا ما يقوله الموظف "ولكن هذه مسئوليتك"

رد علىّ بسرعة مُحْتَجًّا وقال "يا أستاذ... أنا لست موظف أمن.. أنا مدرس أول علوم، ولكن المدير يُصر على توزيع الأمن على المدرسين، ولا يبالى باحتجاجنا، والحقيقة أنه معذور!... المفروض أن توفر الوزارة موظف أمن لكل مدرسة.... الحقيقة أن وقوفنا نحن المدرسين على البوابة ينال من قيمتنا وكرامتنا!..... قلت للمدرس بسرعة، وأنا أومئ برأسى موافقًا "هذا مفروض" تركت المدرس الأول مسئول الأمن، وأنا أردد فى نفسى "ما علاقة مدرس أول العلوم بمسئولية الأمن، ولماذا نُهْدر طاقته فى مثل هذه الأعمال؟!"

أسعدنى الهدوء فى المدرسة، وكذلك أصوات المدرسين وهى تتردد فى الفصول، وكان انطباعى الأول انطباعًا ممتازًا، وقررت فى نفسى أن أكافئ مدير المدرسة وأشكره، ولكن فجأة وعلى حين غرة انطلقت أصوات عالية فزعت لها.... صراخ وزعيق وخبط وأصوات مختلطة..... توجهت بسرعة إلى مصدر الصوت، وآخرون سبقونى، وآخرون من ورائى، وتوقف الجميع أمام أحد الفصول، وانتقل الخبر سريعًا سيدة ضخمة فى حجم الفيل فى ملابس سوداء لون وجهها طرحت مدرسة الفصل أرضًا، وتجثم على صدرها، والمدرسة فى حجم العصفورة، والسيدة تضرب المدرسة بالشبشب، ومعها سيدتان أخريان يحولان بينهما، ودون أى نجدة، والتلاميذ الصغار يصرخون فى رُعب صراخًا يصم الآذان، ولكن مدرسات المدرسة تكاثرن على السيدة المعتدية، وأنقذوا المدرسة من بين براثنها، وجذبنها بعيدًا، وهى تطول بيديها الضخمتين كل ما يصل يديها... والسيدتان الأخريان دخلن أيضًا فى المعركة!

أثارنى المنظر.... صرخت بكل قوتى "أين مدير المدرسة؟"... كانت صرختى موحية بأننى رجل مهم.... تسابقت النظرات تتفحّصنى.... تقدّمت.... تراجع الكل، وأفسحوا لى الخطوات.... برز من بين الجموع رجل نحيل الجسم... بادى الضّعف، قال فى صوت مُتَهَدّج "أنا المدير..... مَن سيادتك؟"

لم يكن الموضوع يحتمل المراوغة.... كنت فى غاية الضيق، وأنا أرى حُرْمَة المدرسة تُنْتَهَك بهذا الشكل المزرى، أعلنت عن شخصيتى.... كانت مفاجأة مذهلة.... ساد الصمت.... تكوّمت السيدات المعتديات فى ركن، وصفرة الموت تعلو وجوههن، وأجهشت المدرّسَة بالبكاء.... كانت فى سن ابنتى تقريبًا.

صرخت المرأة الفيل فى صوت خشن قبيح: "هى ضربت ابنتى يا سيادة الوزير.... أليس الضرب ممنوعًا؟!"

قلت لها، وأنا أقاوم رغبة فى رَكْلها: "المفروض أن تقدمى شكوى للمدير إذا كان ذلك صحيحًا، ولكن أن تأخذى حقك بنفسك... هذه فوضى.... وإذا كان ضرب التلاميذ ممنوع.... فهل ضرب المدرسين مسموح.... لم أكن أعتقد أن الفوضى وصلت إلى هذا الحد.... فيه إدارة، وفيه وزارة.... تستطيعى أن تصلى إلى حقك بطرق كثيرة.

لم أغادر المدرسة إلا بعد استدعاء الشرطة، والقبض على النساء المُعْتَديات.... كان عندى إحساس بأننى المُعْتَدَى عليه، وأن كرامتى هى التى أُهينت، كان يُعَذّبنى قول

المدير يومها: "الموضوع زاد عن حَدّه.... ولى الأمر أصبح يتجرّأ على المدرسة.... العلاقة أصبحت فاسدة بين ولى الأمر والمدرس، وكذلك إدارة المدرسة!

المدرس أصبح يخاف.... يتلفت حوله.... عنده إحساس باحتقار المجتمع له، والتلذذ بإهانته.... حتى التلاميذ.... ليس فى المرحلة الإعدادية أو الثانوية.... بل فى المرحلة الابتدائية أصبحوا يتجرأون على المدرس، بل ويصل الأمر إلى حد الإهانة، وهم دائمًا فى مأمن من العقاب!.... ذات مرة هدد تلميذ صغير مُدَرّسه بأن والده محامى، ولو فعل له شيئًا سيجعله يَحْبسه.... لم يعد التلميذ يحترم المدرس، وكذلك ولى الأمر!.... وصل الأمر أن ولى الأمر أصبح ينتقد المعلم أمام ابنه أو ابنته، بل ويهدده، ويتوعّده، فكيف لهذا المعلم الفاقد للقدوة والهيبة أن يُعَلّم هؤلاء الأبناء.

لا بد من وجود مسافة بين المعلّم والتلميذ نملأها بالاحترام والهيبة والتقدير، وأن نحافظ عليها.... العقاب البسيط لن يَضر.... هو بالقطع سيفيد، ويعيد بعضًا من كرامة المعلم، ويؤكد هيبته فى الفصل، ويستطيع أن يسيطر على تلاميذه"

- وهل أنت مقتنع بكلام مدير المدرسة؟

يعنى بصراحة هل ستوافق على العقاب فى المدرسة.... أقصد العقاب البسيط؟

- لا... لا... العقاب بكل أشكاله ممنوع.... ممنوع.... لا رجعة فى ذلك!.... لماذا تريد أن تجرنى إلى حُفْرَة لا قرار لها!

- صدقنى إننى لست من أنصار العقاب.... لا البدنى ولا النفسى.... العقاب له عواقب وخيمة على التربية.... العقاب يزرع الخوف، ويولّد الجبن، ويُنْشئ جيل مُرْتَجف يخاف أن يتكلّم، أو يُعَبّر عما فى داخله، ويُؤكد الأناماليه، وامشى جنب الحيط، وقل نعم وحاضر فقط!

- كلامك مفاجئ لى.... كنت أحسبك ستردد ما يقوله الناس.... حتى المُثَقّفين "إن العصا تدفع للجد، وتؤكد الاحترام، وتُدَعّم الهيبة".... والمقولة التى يُرَدّدها الناس بأن ولى الأمر كان يطلب من المدرس أن يكسر، وهو سَيُجَبّس، وكلما ازداد الضرب كلما كان دليلاً على الاهتمام من المعلّم!

الحقيقة أن هذا الكلام ليس الآن زمانه، الدنيا تَغَيّرَت.... كل البحوث التربوية توصى بمنع العقاب البدنى والنفسى. وأنا لن أسمح بذلك أبدًا.

- عندك حق..... إن أغلب أسباب العقاب تكون بسبب فشل التلميذ فى حفظ ما يُلَقّن له من معلومات أو محفوظات فى ظل طرق التعليم الحالية، وأسوأ ما فى العقاب البدنى أنها تؤدى إلى إزحام الذاكرة بما تحفظ لا بما تفهم، وهذا من شأنه أن يحجب ملكات العقل والفكر ويمنع بزوغ المواهب، وتُؤدى بالطفل أن يتقوقع، وإلى محاصرة مواهبه بما نُريد وليس بما يُريد الله.

- ولكن للأسف بعض الناس يؤمنون بأهمية العقاب فى التربية مثل أيام زمان!

- تقول أيام زمان..... كانت هناك ثقة متبادلة بين ولى الأمر والمعلم، وكان التعاون بينهما وثيقًا، والاحترام متبادلاً، وكان هناك اقتناع بأنه كما يلجأ الأب لعقاب أولاده عندما يُخْطئون، كذلك يكون هذا الحق للمُعَلّم أيضًا!

- وماذا حدث؟.... ولماذا تطورت الأمور إلى ما آلت إليه من مشاحنات وشكاوى وعدم رضا لأولياء الأمور إذا ما تَعَرّض أبناءهم للعقاب، بل وصل الأمر كما سمعت. إلى تقديم شكاوى فى أقسام البوليس!

- لأن ولى الأمر لم يعد مُقْتَنعًا بأن المعلم يُعاقب ابنه من أجل مصلحته، بل لأسباب أخرى من أهمها إجبار التلميذ على أخذ درس خاص، أو لأسباب تتعلّق بالمعلم نفسه.... مثل شخصيته، أو تكوينه النفسى، ومما زاد الطين بلّة أن الوزير إياه كان يَصْرُخ بأعلى صوته فى كل وسائل الإعلام أن الضرب ممنوع فى المدارس، وأنه سوف يُنَكّل بالمعلم الذى يلجأ للعقاب البدنى أو حتى النفسى، وأعطى تليفوناته، وتليفونات الوزارة إلى أولياء الأمور ليبلغوه شخصيًّا بأى واقعة، وكان يَهَدد المعلمين الأعداء ليل نهار، ثم يقوم بنشر الجزاءات فى كل الجرائد اليومية، ولا يراعى كرامة المعلم، فكان إحساسه بالمهانة، وأنه مُسْتَهْدَف، وليس من سبب حقيقى إلا إظهار العنترية والشهرة، والتأكيد على أنه ما جاء إلا لتأديب المعلمين، وإعطاء الضوء الأخضر لأولياء الأمور للتنكيل بالمعلّمين، وإهانتهم!

سأحكى لك حكاية شهدتها بنفسى، يندى لها الجبين، وظلّت تَجلب السخط واللعنات حتى حين على وزير لم يَدخل فصلاً دراسيًّا فى حياته إلا وهو تلميذ!

- سوف أتجاهل إشارتك الخبيثة، وأطلب أن تحكى لى الحكاية.

- عذرًا.... لا أقصد شيئًا، ولكنى فقط أذكر الحقيقة!

- لا عليك..... تكلم.

- أيامها اخترع الوزير إياه لجان أسماها "لجان المتابعة"... كان يختار رجالها ونساءها

بنفسه، وكانت الشروط قاسية وصارمة..... يُحَددها بنفسه، وكانت أهم المؤهلات المطلوبة.... الوجه الغاضب المكفهر على الدوام، والتأكيد بأغلظ الأيمان بأنه لم يبتسم أبدًا طوال حياته، وأنه تعرض للتعذيب والاعتقال والظلم والاحتقار، وأن ملف خدمته ملىء بكل أنواع الجزاءات، ومعه شهادة طبية من طبيب مشهور بأن عنده سادية، ورغبات محمومة للتنكيل بالناس، والاستمتاع بأذيتهم! لا ترى عيونهم إلا ما هو سلبى وقبيح، حتى ولو كان فى حجم رأس الدبوس، بينهم وبين الجمال خصام، وبين القبح هوى ووئام، يهجمون على المدرسة المتعوسة، وعندهم الرغبة لافتراس المدرسين الغلابة.

وفى يوم كانت عواصفه مُزَمجرة، وأمطاره هاطلة، ورياحه عاتية، وبرده يُجَمّد الأبدان، هبطت لجنة من لجان المتابعة على المدرسة الضحية..... رجلان وامرأة.... دخلوا المدرسة دخول الغزاة.....

لم يُلْقوا السلام، وأعلنوا عن هويتهم فسابت المفاصل، وارتعشت الأبدان، وانطلقت الدعوات من كل الجنبات، ومن كل المعلمين بأن يكفيهم الله شَرّهَم، فقد كانت سيرة هذه اللجان فى كل أنحاء القطر المصرى مثل سيرة أمنا الغولة، لم يسلم منها إنسان من المعلمين، وكانت الخصومات بالشهور وليس الأيام، وأحيانًا النقل من طنطا إلى أسوان!

دخلت اللجنة فصل الأستاذ سمير البارودى.... جاء من أسيوط.... تُعَذّبَه الغُرْبَة، وتستنزف دخله، ويعيش فى القاهرة عيشة المساكين الذين يستحقون الزكاة كما أفتى يومًا مولانا فضيلة المفتى!..... كانت فى يده عصا يُشير بها على ما يشرحه على السبورة..... كان يَعتقد كما كان فى أيام زمان أن العصا كانت عنوانًا للمدرس ورمزًا له، ويستخدمها فى توضيح ما هو مكتوب على كل جنبات السبورة!

سأله أحد الزبانية.... وهو يكاد يطير من الفرح، ومن عينيه تنطلق نظرة الذئب الجائع عندما يرى الفريسة.... سأل بصوته المشروخ " لماذا تحمل هذه العصا يا أستاذ؟..... ألا تعرف أن الضرب ممنوع "قال المدرس المسكين وهو لا يفهم، ولكنه استشعر الخطر، فقال فى رعب، ولكن بتبرير معقول فيه الحقيقة وفيه البيان "أنا لا أضرب أحدًا يا سيدى..... أنا فقط أشير بها إلى ما هو مكتوب على السبورة كما ترى!"

تَقَدّمَت المرأة المتابعة خطوتين إلى الأمام، أو قل تَدَحرَجت مثل البرميل.... صرخت فى صوت ليس مثله للنساء، بل هو لصوت الرجال أقرب "إنك تُمسك العصا يا أستاذ..... هذا

دليل واضح على أنك تضرب الأولاد..... أُكتُب ذلك فى التقرير يا أستاذ شندويلى!"

كَتَب الأستاذ شندويلى ما تخيّله فى التقرير، وأشار إلى أسلحة الدمار الشامل التى يحملها الأستاذ سمير البارودى، ولم تمض أيام، وبدون تحقيق ولا استئناف، وكان القرار من الوزير الإنسان.... خصم شهر كامل من الأستاذ الغلبان.... كانت صدمة فى المدرسة، وتناقل الناس الخبر فى ذهول، وارتفعت الألسنة بالدعاء على الوزير أن ينتقم الله منه، ومن كل الظالمين!

- الحقيقة أن هذا ليس بعقاب.... إنه أشبه بالانتقام!

- كان وزيرًا مُغْرَمًا بتوقيع الجزاءات المُدَوِّيَة.... وكان عقابه على أتفه المخالفات لا يقل عن الشهر، وربما الشهرين!.... قل لى بالله عليك هل هذا المدرس يستحق هذا العقاب؟

- لا طبعًا.... إنه كثير.

- على العموم لم يَستمر هذا الوضع فى عهد الدكتور أحمد جمال الدين موسى.

- ماذا فعل الدكتور أحمد جمال؟.... هل ألغى لجان المتابعة؟

- لا طبعًا، ولكن غَيّر من أفرادها، وسياستها، وجعل لها وظيفة إيجابية، ليس هدفها الوحيد اكتشاف السلبيات، ولكن مساعدة إدارة المدرسة على وضع الحلول لإزالتها، ومتابعة هذه الجهود وتدعيمها بالرأى والخبرة.

كان المتابع يأتى إلى المدرسة، فيقول أنا هنا لأساعدك لتحسين أداء المدرسة، وتطوير عملها.... والوقوف بجانبك لحل أى مشكلات تعوق المدرسة عن أداء عملها.

كان لا يترك المدرسة إلا بعد أن يتصل بالمسئولين، ويتفق معهم على تنفيذ الحلول المقترحة، وتزويد المدرسة بالإمكانات المُتاحة.

مُتابعة إيجابية..... لها ثمار عظيمة.

- هذا شىء طيب وأسلوب عمل ممتاز، وأعتقد أن هذا الأسلوب ما زال ساريًا، وسوف يتم تدعيمه بإذن الله.

تكلّمنا اليوم كثيرًا، وشىء من الصداع بدأ يتسلل إلى رأسى، وأنا فى حاجة إلى الراحة.

- كان الله فى عونك.... الحقيقة أنه لا راحة فى هذه الوزارة!!

(٢)

وزير ناجح..... ولكن!

هـذا الرجـل.... رغـم قصـر المـدة التـى تـوَلّى فيهـا الوزارة.... كانت له بصمات رائعة، ومواقف نادرة.... يكفى أنه حاول بإخلاص أن يُعيد للمُعَلّم كرامته التى أهدرها من سبَقَه بإصرار غريب!!

obeikandi.com

- هل تريد أن تكون وزيرًا ناجحًا يُشار إليه بالبنان، ويذكره الناس بالخير، مثل البعض ممن سبقوك؟

- أكيد.... ولكن هل سبقنى كثيرون ممن تنطبق عليهم صفة النجاح؟

- طبعًا.... من ينسى الدكتور طه حسين فى بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر، والدكتور أحمد جمال موسى فى العصر الحديث.

- بالطبع هما من أحسن من تولّى الوزارة، ولكن هل تذكر لى بعض أعمالهما؟

- هذان الرجلان العظيمان نموذجان فقط.... يكفى أن الدكتور طه حسين كان ينادى بأن التعليم مثل الماء والهواء، وكانت مجانية التعليم فى عهده عندما كان وزيرًا للمعارف فى حكومة الوفد عام ١٩٥٠.

- طيب... والدكتور أحمد جمال؟

- هذا الرجل رغم قصَر المدة التى تَوَلّى فيها الوزارة كانت له بصمات رائعة، ومواقف نادرة، يكفى أنه حاول بإخلاص أن يُعيد للمعلّم كرامته والتى أهدرها من سبقه بإصرار غريب، ووصفه بصفات لا تليق أقلّها أنه "مافيا"، ولم يترك مناسبة إلا وهاجم المعلم، وحَط من قَدْره، ونجح نجاحًا باهرًا فى تشويه صورته، وأرجع كل المشكلات التى تعانيها مصر.... حتى انخفاض قيمة الجنيه المصرى.... إلى المعلم والدروس الخصوصية..... بالمناسبة.... ما هو رأيك فى الدروس الخصوصية؟

- إنها مشكلة مزمنة تحتاج إلى جهد كبير للقضاء عليها، وأنا عن نفسى سوف أحارب ذلك بقوة.

- هكذا كان يقول الوزير إياه.

- ألم يكن على حق؟

- أنا أسألك أنت رأيك.... أنت المسئول، وأنت الذى جيء بك لتصلح الأحوال، وتنقذ التعليم، وتُعيد الهيبة، وأنت السلطة، وفى يدك السوط، والسلطان، واللسان والقرار.

- أنا رأيى ذكرته.... لا أحد يُنكر أن الدروس الخصوصية هى مشكلة مستعصية، ومشكلة كل أسرة، وهى لاشك سبب رئيسى لانحدار مُستَوى التعليم فى مصر.

- الوزير إياه كان يقول إن مافيا الدروس الخصوصية هى السبب فى كل الكوارث التى تحدث فى المجتمع المصرى.... هى سبب أزمة الجنيه المصرى، وأزمة الخبز، وأزمة الزواج، وكل ما يُعانى منه مجتمعنا فى الحَضَر والريف..... الغريب أنه فى عهده السعيد انتشرت الدروس الخُصوصية انتشارًا غير مسبوق..... أرى الدهشة على وجهك..... والله هذه هى الحقيقة.... فقد قام سيادته بعمل اختراع عجيب وغريب مثل كل اختراعاته التى دَمّرَت التعليم، وهو اختراع العامين فى الثانوية العامّة بعد أن كانت سنة واحدة فقط، وبعد أن كانت الأزمة فى البيوت عام واحد أصبحت عامين، وبعد أن كان التركيز فى إعطاء الدروس الخصوصية فى سنة ثالثة أصبحت فى سنة ثانية أيضًا، وكأنه كان يُنفذ مُخَطط مُتعَمّد لتصدير القلق والتوتر والمعاناة للناس أطول فترة ممكنة!..... ولكن هل تعرف رد الوزير الفاضل الدكتور أحمد جمال عندما سُئل عن رأيه فى مشكلة الدروس الخصوصية.

- ماذا قال؟.... قُل لى بالله.... ربما أستفيد.

- قال ما هو حق..... لم يُماطل ولم يُراوغ، ولم ينظر إلى أعلى حيث عيون الأوصياء تُراقبه، والآذان تسمع..... العيون والآذان التى لا تريد الحقيقة، ولكن تُريد الكلام، والضحك على الذقون، وإطلاق الدخان حتى لا يرى الناس الحقيقة..... ولكنه قال كلمات قليلة، وخفيفة ولكنها توزن بميزان الذهب.... ولكنها كانت سببًا مباشرًا فى التعجيل بإخراجه من الوزارة!

- ماذا قال؟ لو سمحت... أريد كلمات مُحَدّدة.

- قال إن القضاء على الدروس الخصوصية لا يمكن أن يكون بقرار ذلك يتطلّب إصلاح حال المُعَلّم، وإصلاح مناهج التعليم.

- كلام سليم.

- هذا قول خبير.... الصراحة منهجه، والصراط المستقيم طريقه، بالله كيف لمدرس هذا الزمان أن يقبض مُرَتب قدره مائة جنيه.... مُرَتب لا يَكْفى طفل صغير!

- تقول مائة جنيه؟!

- ألا تَعْرف ذلك؟

- طبعًا... لا أعرف.... هذا شىء مُحال، وأعتقد أن ضعف هذا المرتب عشر مرات لا يكفى.

- يُؤسفنى ذلك لأنك للأسف لست من أهل المهنة، ولم تعمل فى مدرسة طوال حياتك، ولم تدخلها إلا وأنت تلميذ... مثل هذا الوزير إياه الذى أتوا به من العيادة ليقود الوزارة، فأصيب التعليم بنكسة، بل فى مقتل!

- هذا تلميح خطير، بل قول خطير!

- لا تؤاخذنى.... لا أستطيع أن أكتم ما فى قلبى، ولكن دعنى أسألك سؤالاً آخر

- قل يا سيدى.... اسأل ما تريد.

- هل تعرف أن المدرس.... القديم.... لا يتعدى مُرَتبه ٣٠٠، أو ٤٠٠ جنيه بالكثير، وطبعًا له أسرة، وعنده أولاد، ومن نار الأسعار يكتوى، ومن مشاكلها يَحْتَرق.

- ولكنه يُعْطى دروسًا خُصُوصية.

- أنت الذى تقولها بنفسك، ولكن هل تعتقد أن كل المعلمين يُعْطون دروسًا خصوصية، ويَرْيحون الآلاف كما يُرَوِّج إخواننا الصحفيون!

- طبعًا... ليسوا كلّهم.

- أنا أعرف أن هناك معلّمين يريحون الآلاف، ولكن عددهم قليل.... لا يَتَعَدّى الواحد فى الألف، وليس واحد فى المائة، ولو ضَربنا مثلاً لتوضيح الصورة فسنجدهم مثل حال الأطباء.... منهم طبقة تريح الملايين، وطبقة متوسطة تعيش عيشة راضية، ولكن الأكثرية منهم يتسولون عملاً فى مُسْتَوْصَف، أو فى التأمين الصحى، أو المستشفيات الحكومية، وفى القرى والنجوع، وليس لهم نصيب إلا الفتات والعيش فى ضيق..... كذلك المدرسين... ليسوا كلّهم باشوات، ولهم دخول بالآلاف.... إن الغالبية تعيش على المرتّب الهزيل، والذى لا يُسْمن دخلها من جوع!

- على العموم المُرَتبات هى سياسة الدولة، وليس للوزير دخل فيها، وليس فى يده أن يَرفعها أو يزيدها مليمًا واحدًا، ثم إن الدولة تُنَفّذ ما جاء فى برنامج الرئيس مبارك، وذلك بوضع "كادر المعلمين" موضع التنفيذ.

- الحقيقة أن كادر المعلمين هو خطوة قصيرة على الطريق.... ولكنى لم أنته من الحديث عن الدكتور أحمد جمال..... الحقيقة أنه كان يمتلك رؤية واضحة لكل المشاكل التى يُعانيها التعليم فى مصر، وكانت عنده الحلول الواقعية.

- أنت متحَمّس له لأنه بلدياتك.... ألست من المنصورة؟

- هذا شرف عظيم، ولكن الواقع أنه كان الرجل المناسب لهذه المرحلة الحرجة..... هذه حقائق تؤكدها الوقائع.... كان لا يتملّق السلطان، ويقول كل شيء تمام، والتعليم بخير، والمدرسين الأعداء أعضاء عصابات المافيا سوف يخرب بيوتهم، وسوف يُطاردهم في كل حارة وشارع، وقرية ومدينة!

- يُطاردهم..... كيف ذلك؟

- طبعًا كان يُطاردهم!..... ألم تسمع عن المهازل التي كان يفعلها الوزير إياه، ومطاردات البوليس للمعلمين، ومراقبتهم وهم يتسللون إلى "أوكار الدروس الخصوصية" ثم يَكْبس عليهم البوليس والمخبرون، ويُلْقون القبض عليهم بتهمة "تعاطي الدروس الخصوصية" ثم إرسال أسمائهم إلى مصلحة الضرائب لتخرب بيوتهم، ثم يتم تشريدهم بالنقل إلى بلاد بعيدة، ثم تُنْشر أسماء المجرمين على صفحات الجرائد والمجلات، ثم يظهر منتفخ الأوداج.... سعيد... فرحان، ولسان حاله يقول "ألا تروا كيف أُصْلح حال التعليم؟".... ثم يَذهَب إلى بيته هادئ البال.... راضي النفس، وربما يَسْحَب السجادة ويُصَلّي، وربما كان يصوم رمضان، والناس المُشَرّدة لا تَكُف عن الدعاء عليه، ودموعها لا تجف، وعيونها لا تنام!

- طيب لو كُنت الوزير.... ماذا كُنت ستفعل إزاء هذه المشكلة؟

- قلت ذلك.... عندما سئل الدكتور أحمد جمال قال الكلام المفيد ولم يلف أو يدور..... الأساس هو إصلاح حال المعلم، ورفع قيمته المعنوية، وإرجاع كرامته المُهْدَرَة، وتأكيد قيمته العالية في المجتمع، والتركيز على رسالته الجليلة، فيتفرغ لعمله وروحه المعنوية في السماء، فيُخْلص له، ومن هنا نبدأ الإصلاح.

كان حسن النية.... يعمل بضمير وإخلاص، وأعد خطّة مُتكاملة للنهوض بالحركة التعليمية في مصر، ولكن رئيس الحكومة كان يُعد خطة لإبعاده من الوزارة، ويبحث عمن يخلفه!

أكّد ذلك الدكتور أحمد جمال بنفسه في برنامج العاشرة مساءً الذي يُذاع على قناة دريم الفضائية حيث قال إن ما فعلته الحكومة معه خير إثبات على أنها لا ترغب في إصلاح العملية التعليمية، وأنه ليس حقيقيًا أن استبعاده كان بسبب ابن خالته "د.جمال حشمت" المُنتَمي لجماعة الإخوان المُسْلمين، لأن الحكومة مُتأكدة أنه ليس له تَوجهات إخوانية قبل اختياره رئيسًا لجامعة المنصورة، وأن الحكومة تعرف جيدًا أنه

على علاقة أسرية بالدكتور جمال حشمت.

وختم تصريحه "يكفى أننى فى فترة قصيرة قضيتها فى الوزارة استطعت أن أُحقق ما كان يأمله الناس بالنسبة للتعليم، ولم أستغل نفوذى، أو أُخالف ضميرى، لأنى اعتبرت الوزارة أمانة يسألنى عنها ربى يوم لقائه"

- تكلّمنا كثيرًا عن بلدياتك.... دعنا نتحدث عن العنصر الثانى، وهو المناهج الدراسية..... أقصد تعديل المناهج الدراسية.

- هذا صحيح، ولكنى لم أنته بعد من الحديث عن المُعَلّم..... المعلم هو الأساس فى أى عملية إصلاح..... المُعَلّم هو الذى سينفذ.... هو الذى سيُدَرّس.... هو الذى سيُرَبّى.... المناهج على الورق.... من الذى ينقلها إلى العقول.... المعلم هو الأساس.

- على العموم..... الوزارة تُطَبّق الآن كادر المعلمين، وهى بالتأكيد خُطْوَة عظيمة على الطريق.

- لا أنكر ذلك، ونعتبرها بداية صحيحة، ولكنها للأسف قطرات لا تبل الريق..... لو كان احتياجك ألف جنيه، ودخلك لا يصل إلى خمسمائة جنيه..... ماذا يفعل الكادر؟... ستظل المشكلة قائمة، بل ستتفاقم، ويتعاظم خَطَرُها، ولكن أيضًا لا تنسى حكاية المائة جنيه فهى مهزلة تستدعى التدخل الفورى!

- كيف لى أن أنسى، ولكن أرجو أن تتركنى الآن فأنا أحس بالاختناق، والضيق، وأنا أريد أن أنام الآن فعندى كبسة فى الصباح على مدرسة الفلاح النموذجية!!

هامسًا فى نفسه.....

- يا ويل العاملين بها!!

(٣)

مُعَلِّم مدرسة المشاغبين!

"التحَقْت بمدرسة حكومية، وكان نظام التعليم فى مصر نظامًا ممتازًا يقوم على مبدأ المنافسة الشريفة فى بيئة اجتماعية مُتَجانسة، وحظى المُعَلّمون بمكانة بالغة الاحترام والتقدير من تلامذتهم، والمجتمع بأسره، وانعكس ذلك على العلاقة بين التلميذ وأستاذه التى كانت علاقة أصيلة ومُشَجّعَة، وليست مُلْتَفّة حول الدروس الخُصوصية"

د. أحمد زويل

الحائز على جائزة نوبل فى الكيمياء

obeikandl.com

- ماذا عندك اليوم؟

- أشم نبرة التهكم فى سؤالك!

- كيف لا ، وأنت تجعل كل الطرق أمامى مُظْلمة ، وكل شىء سلبى، ولا توجد إيجابيات نتحدث عنها!

- وهل تظننى سعيدًا بذلك؟!.... المفروض أننا نتقدم لأن الوسائل أيضًا تقدّمَت، والعالم من حولنا يقفز قفزات مهولة إلى الأمام، ونحن نتقهقر إلى الخلف، لقد سمعت الدكتور "فاروق الباز" العالم المصرى الكبير يقول فى التليفزيون "كان زمان خريج الجامعات المصرية لا يختلف مستواه العلمى كثيرًا عن خريج جامعات أمريكا، ولكن فى هذه الأيام مستواه لا يزيد عن مستوى الإعدادى فى أمريكا!"

كذلك الدكتور أحمد زويل صاحب نوبل، ونابغة العلماء فى العالم كله يقول فى كتابه "رحلة عبر الزمن"

"التحقت بمدرسة حكومية، وكان نظام التعليم فى مصر نظامًا ممتازًا يقوم على مبدأ المنافسة الشريفة فى بيئة اجتماعية مُتجانسة، وحظى المعلمون بمكانة بالغة الاحترام والتقدير من تلامذتهم، والمجتمع بأسره، وانعكس ذلك على العلاقة بين التلميذ وأستاذه التى كانت علاقة أصيلة ومُشَجّعة، وليست مُلْتَفّة حول الدروس الخصوصية"

ألا تتفق معى على الحسرة التى أتجرع نارها ، وأنا أرى كل هذا الانهيار فى شَتّى مجالات التعليم، وانهيار فى العلاقة بين عناصرها الفاعلة.... انهيار فى العلاقة بين المعلم والتلميذ... وبين التلميذ والمدرسة... وبين ولى الأمر والمعلم... وبين ولى الأمر والمدرسة... الكل فى صراع وتناحر.... تفرّقَت الأهداف، وتَدَنّت الوسائل، واختلفت سبل العلاج.

- نحن نحاول فى الوزارة أن نتغلّب على هذه المشاكل، وعندنا خبراء يعملون ليل نهار من أجل إصلاح منظومة التعليم، ومن أجل تطوير المناهج، وتبسيط العلوم، وإزالة الحشو، وإدخال التكنولوجيا فى التعليم، واستخدام مُستَحْدثات العلم الجديدة.

- وأين المعلم..... بدونه لا فائدة، ولا إصلاح..... نحن فى الواقع فى حاجة إلى معلم متخصص.... فاهم لرسالته.... مُدَرّب على استخدام التقنيات الجديدة فى التعليم.....

لقد قلت بنفسك فى التليفزيون عقب الكبسة المشهورة أن المعلم الموجود فى المعمل لم يستطع فتح جهاز الكمبيوتر..... حصل؟

- أنا قُلْت هذا بالفعل!

- ما جدوى الآلة إذا لم يوجد من يُديرها؟..... البداية هى الاهتمام بالمُعَلّم..... إعداده بطريقة سليمة، ولا أقصد بالإعداد..... الإعداد العلمى والتدريب المهنى فقط، ولكن إعداد المعلم من الناحية النفسية والسلوكية والتربوية، وقبل كل ذلك التقدير المادى الذى يتناسب مع قيمة رسالته السامية، والذى يُغْنيه عن اللجوء لإعطاء دروس خصوصية، أو العمل بعد اليوم المدرسى فى مهن متدنية لا تتفق مع وضعه الاجتماعى....

يا سيدى أنا أعرف مُعَلّمين يعملون جرسونات فى المطاعم، وسائقى تاكسى وسباكين، وبعضهم يعمل فى محلات إصلاح أجهزة كهربائية، أو فى فرق غنائية من الدرجة الخامسة وأشياء أخرى يضيق بذكرها الحديث..... لذلك فالمعلم ناقم على عمله..... كاره له لأنه يُعْطيه إحساسًا بالدونية، فكيف نطالبه بأداء رسالته... ليست العلمية، ولكن الأهم الرسالة التربوية، وتعليم المبادئ والأخلاق والفضيلة، ويكون القدوة أمام تلاميذه، سأقول لك شيئًا يُمكن أن يُزْعجك!

- أكثر من هذا؟!

- طبعًا!..... ما أقوله لك كلام مُرْسَل، ولكنى سأذكر لك شيئًا شهدته بنفسى فضلاً عن أن التلاميذ يتناقلونه.

- قُل يا سيدى..... يبدو أن جرابك ملىء بالكثير!

- يوجد مدرسون يتقاسمون تدخين السجائر مع التلاميذ، هذه حقيقة... بل أنا أعرف بعض أبطالها! وطبعًا ما خفى كان أعظم..... يا سيدى الصورة المُحْتَرمة للمعلّم والمُرَبّى أصبحت من التراث القديم!

وهذا ليس وليد اليوم فقط، بل هو نتيجة تراكمات على مَر العقود.

- يعنى الموضوع من زمان.

- نعم..... هل تذكر مسرحية مدرسة المشاغبين.....

هل رأيت صورة المدرس فيها، بل وناظر المدرسة أيضًا، وهل رأيت مدى الإعجاب

بالتلاميذ المشاغبين، وهم يسخرون من المدرس المسكين، هل رأيت صورة المدرس فى أفلام ومسرحيات نجيب الريحانى وفؤاد المهندس، وأصبحت السخرية من المدرس، والتنكيل به مادة خصبة لكل مؤلفى المسلسلات والأفلام، وأيضًا رجال الصحافة من رسامى الكاريكاتير، وبعض الأقلام التى لا ترعى الضمير ولا تملك البصيرة، وانساقت وراء أقوال الوزير إياه بأن المدرس المصرى هو سبب أزمة الجنيه المصرى، وانخفاض قيمته، بل وسبب كل الكوارث التى يعانى منها المجتمع.

ذات مرة جلس أحد رؤساء التحرير الكبار، والذى يجلس فى مكتب مُكَيَّف ويقبض الألوف، وأمسك آلة حاسبة، وأخذ يَحْسب ما يتقاضاه المدرس فى الساعة واليوم.... كذا حصة فى اليوم، والحصة بخمسين جنيه، ويحضر الحصة خمسة تلاميذ، ثم أخذ يحسب ويجمع ويضرب، ويضع الأرقام بجوار بعضها، والناتج بالآلاف، ثم وصل إلى استنتاج عبقرى بأنه يجب قطع رءوس المدرسين الأعداء الذين يستنزفون أولياء الأمور، ويُدَمرون الأسرة المصرية، والاقتصاد المصرى!

هكذا بكل بساطة، وكم كانت السخرية لاذعة من كل من قرأ المقال، وكأن كاتبه يعيش فى دولة أخرى.... خاصة وأنه كان يُشير إلى أن ذلك يخص كل المعلمين حتى مدرسى التربية الرياضية والتربية الزراعية!

كل ما ذكرته لك.... هو عبارة عن تراكمات واتهامات بلا دليل ولا منطق، وإن كان صحيحًا بالنسبة لعشرات أو مئات، ولكنه ليس صحيحًا بالمرة لمئات الألوف الذين لا يصل دخولهم إلى مرحلة الكفاف!

يا سيدى إذا أردنا أن نتقدم، وأن ننقذ مركب التعليم من الغرق لا بد أن نبدأ بالمعلم.... المعلم هو البحار والربان.... وقبل كل ذلك يجب اختياره بطريقة سليمة ودقيقة، فليس كل خريج جامعة يصلح أن يكون مُعَلّمًا، لذلك يجب إعداده إعدادًا سليمًا من كل النواحى العلمية والفنية وتدريبه لاستخدام تقنيات العصر الجديدة كالحاسبات وشبكات الإنترنت، وأن يكون خاضعًا للإشراف الدقيق والمتابعة المُسْتَمِرّة، وقبل كل ذلك وكما قُلْت لا بد من توفير الحياة المادية المناسبة التى تتيح له التفرغ لعمله العظيم، والإبداع فيه، واستخدام كل طاقاته بدلاً من تشتيت ذهنه وجهوده فى أعمال أخرى تؤثر بالقطع على عمله الأصلى.

وإذا سمحت لى أن نُلْقى نظرة سريعة على وضع المعلّم فى الدول المتقَدّمَة نجده فى

أعلى مكان ماديًا ومعنويًا، فالمدرس فى اليابان مثلاً يتمتع بالحصانة، وله أعلى مكان فى المجتمع، وله قُدْسية ومهابة، والمدرسة هناك جنة للأطفال ومتعة لكل عناصرها.... البسمة على الوجوه، والحب مُتَبادل، والكل يعمل بكل طاقته، ولذلك نجد الناتج رائعًا.... ثقافة وعلم وأدب وتربية وأخلاق، وإقبال على الحياة، وحب للوطن.

- أنت تتكلم عن دول تختلف كثيرًا عن مجتمعنا وإمكاناتنا!

- لنترك اليابان..... ما رأيك فى الهند..... الهند التى كانت تُمَثّل لنا نحن المصريين مثالاً للتخلّف، واعتدنا على تكرار المثل للمتخلّف والعبيط بأنه "هندى"..... طبعًا أنت تعرف ذلك، بل وسمعته بأذنيك!..... الهند الآن أكبر بلاد العالم تصديرًا لبرامج الكمبيوتر وهى تتقدّم فى هذا المجال بشكل ملحوظ، وصادراتها الآن بالمليارات، وبرامج الكمبيوتر لا تحتاج إلى مراكز ومعامل..... كل ما تحتاج إليه منضدة وجهاز كمبيوتر، وما أكثرهم فى أيدى الشباب.

المُستشار الألمانى نفسه أعلن فى أحد المعارض الكُبْرى الخاصّة بتكنولوجيا المعلومات قال إنه مُضطر لمنح ٣٠ ألف فيزا عمل للهنود لأن طموحات ألمانيا فى البرمجيات أقل من إمكانياتها!

الهند سبقتنا بكثير، ويحق عليها الآن أن تنعت المتخلف والعبيط عندها بأنه "مصرى" أو "عربى".

طبعًا لم يحدث ذلك إلا بسبب التعليم، والاهتمام الكبير به، ووضعه فى أولويات الاهتمام، وجعله مشروعًا قوميًا..... ثم أن هناك شيئًا آخر نُغْفله أو نتغافل عنه..... رغم أن الكل يتحدّث عنه، ولكن كما هى العادة نُحْسن الكلام ولا نحسن الفعل.... نعرف الداء، ولا نختار الدواء الصحيح!

- قل لى بالله ما هو؟

- ليس الليلة يا سيدى..... ربما غدًا لأن الوقت سيطول، والليلة أنا مهموم ومشغول!!

obeikandl.com

(٤)

بداية مرحلة القَصْعَة!!!

.... إهمال حال المُعَلّم، وتهميشه، واستصغار دوره فى المجتمع يؤثر بالسلب على النظرة إلى العلم وأهميته، وإهمال دور العلم فى اللحاق بالمجتمعات المتحضّرة، والنظرة الدونية له تُؤدى إلى التخلف وازدياد أمراض وعلل التعليم!

obeikandl.com

- أنا لم أنس حديث الأمس..... كان الحديث عن المُعَلّم..... دائمًا تتحمّس وتنحاز له.

- لأنه هو أساس كل إصلاح..... بدونه لا أمل، ولا تنمية، ولا جيل صالح..... بل ولا حضارة أيضًا!

- كل هذا؟

- وأكثر..... ألست تتفق معى أن التعليم فى مصر، بل وفى العالم العربى، بل وفى العالم الإسلامى يُمَثّل الأزمة الأم..... لأنه لا صلاح للإنسانية إلا بالعلم والتعليم..... بدونه يكون الفساد..... فساد الإنسان، وفساد المجتمع، وكما نراه الآن..... لقد حذّرنا الله فى كتابه الكريم ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ صدق الله العظيم.

- صدق الله العظيم..... عندك حق.

- الحقيقة.. لا توجد وسيلة لصلاح الإنسان أو الأفراد إلا بالعلم..... عن طريقه تصلح العقول، وتؤدى الأمانة التى حَمّلَنا الله إياها، واستخلَفَنا فيها..... بالعلم يستقيم الأفراد، وتنهض الأمة، ونخرج مما نحن فيه من جهل وتخلّف.

- هذا صحيح بل هو بديهى، ولكنك بعدت عن الحديث عن المعلم.

- لا..... بل هو كلام موصول ومترابط..... فلا علم بلا مُعَلّم، وأنا أقصد المعلم الذى تكلّمت عن صفاته من قبل..... المعلم الفاهم الواعى لرسالته والمستعد على تحمل المشاق، ووخز الأشواك، والذى يعلم أن رسالته هى رسالة الأنبياء، وأنت أول من يعلم كم تحملوا فى سبيل أدائها من مشاق وعذاب.

- كان الرسول الكريم ﷺ يصف نفسه بقوله "إنما بُعثت مُعَلّمًا"

- عليه الصلاة والسلام..... كان خير مُعَلّم وخير قُدْوَة، ويُعْطينا بقوله الكريم الذى ذكَرْته الإشارة إلى أهمية رسالة المُعَلّم، وأنه ﷺ أدرك منذ اللحظة الأولى لدعوته إلى الإسلام إلى أهمية التعليم، فقد كانت بداية التنزيل ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ صدق الله العظيم.

لم تكن هذه الآيات الكريمة إلا دعوة للقراءة التى هى مفتاح العلم، لذلك قال الرسول الكريم ﷺ قولته الشهيرة الجامعة المانعة "إنما بُعثت مُعَلِّمًا".... حصر غاية رسالته العظيمة فى كونه مُعَلِّمًا لعظم دوره، وتأكيدًا لقيمته العُلْيا، وقال أيضًا "إن الله لم يبعثنى مُعَنِّتا، ولا مُتَعَنِّتا، وإنما بَعَثَنى مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا"

- عليه الصلاة والسلام..... بيان مُعْجز ولسان فصيح وكلمات هادية.

- نعم... عَلَّمَه شديد القُوى.... إن هو إلا وحى يوحى.... لقد كان حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على العلم والتَّعَلُّم كبيرًا.... لقد جعل فداء الأسرى ببدر مقابل تعليم القراءة والكتابة لعشرة من أبناء المدينة.

- أنا أحفظ هذا الحديث.... هذا ما جاء فى الحديث الصحيح الذى أخرجه الإمام أحمد فى مُسْنَده عن ابن عباس قال "كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يَكُن لهم فداء فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يُعَلِّموا أولاد الأنصار الكتابة" وهذا خير دليل على القيمة العالية للعلم.

- نردد هذا الكلام فقط، مثلما نردد كثيرًا من الشعارات الزائفة، ولا نعمل بها، وهذا هو سبب التردى الذى نعيشه فى كل مجالات الحياة، وليس لها من سبب مُباشر إلا تهميش دور المعلم، وإهمال شئونه، والتكيل به فى كل وسائل الإعلام، وذلك بالطبع يؤدى إلى انحطاط قيمة التعليم، وذلك يُؤدى بالقطع إلى ازدياد واتساع فجوة التخلُّف بيننا وبين كثير من دول العالم، وأصبحنا نعيش فى مرحلة "القَصْعَة"

- مرحلة القصعة؟

- نعم.... مرحلة القصعة.... ألم يُحَذِّرنا الرسول ﷺ من الوصول إلى هذه المرحلة..... مرحلَة الوَهَن والضعف، قال عليه الصلاة والسلام "توشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قَصْعَتِها.... فقال قائل: أمن قلّة نحن يومئذ؟ قال "بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عَدوّكم المهابة منكم، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن..."

- كأنه كان يَرانا، ويعرف حالنا!

- هذه المرحلة لم نكن لنصل إليها لولا إهمالنا للعلم، وانحدار التعليم، وإصابة

العقل العربى بنكسة شديدة، فكان الجهل بعد العلم، والانحطاط بعد الرقى، وإلى الضعف بعد القوة، فَظَهَر الفساد فى البر والبحر، وأصبَحَنا "القَصْعَة" التى تأكل منها الأمم، فأصبَحَت ثَرْوَتَنا للغير، وأصبَحنا مُجَمّعًا استهلاكيًا يَصُب فى مصلحة الغير... حتى المعارك ندخلها نيابة عن الغير، وليست حرب أفغانستان ببعيدة.... حاربنا الروس نيابة عن الأمريكان، ثم بعد أن تحقق المُراد ركلونا بالأحذية..... حتى عقولنا ومواهبنا استولوا عليها وما يزالون عندما أغروهم بالمال والإمكانات الغير محدودة.... وكان علينا أن نستفيد بعلمائنا، وعقولنا ومواهبنا ليعملوا لمصلحتنا، ويرتقوا بنا، وحتى عندما يُحاول عُلَماؤنا بالخارج هذه الأيام أن يَمدوا أيديهم لينتشلوا الوطن من هُوّة التَخَلّف العلمى يُحاربهم الأوصياء علينا، وليس أدل على ذلك من مشروع الدكتور أحمد زويل الذى لَبّى نداء الوطن والواجب والضمير الوطنى، وقرر عمل جامعة بَحْثية علمية، ووضعوا فى طريقه العراقيل والألغام، وأجهضوا حلمه، وعندما اختاروا أحسن ٥٠٠ جامعة فى العالم لم يكن لمصر جامعة واحدة!... بل سأقول لك شيئًا غريبًا قرأته فى جريدة الوفد تحت عنوان "بحث علمى كسيح" وموضوعه أن مُخَصّصَات العلماء كانت ٣٠٪ فى الستينيات، وأصبَحَت ٢٠٪ من الناتج المَحَلّى، وقال التقرير فى إحدى فَقَراته " ومن يُطالع مُفْرَدات موازنة البحث العلمى سيَعْرف أن البحث العلمى يَتم ذبحه مع سبق الإصرار والترصد " وفى فقرة أخرى... يقول دكتور يحى قَزّاز أستاذ الجيولوجيا بجامعة حلوان، وعضو حركة ٩ مارس "إنه لا يوجد بَحْث علمى فى مصر، والوصف الأكثر تَعْبيرًا عَنْه "التهريج العلمى"

ذكر الدكتور زويل فى محاضرته التى ألقاها بمكتبة الإسكندرية بعنوان "عصر العلم والمُسْتَقْبل" أن مصر لديها الكثير من الكفاءات الممتازة سواء من الشباب أو الأساتذة، ولكن يجب توفير المناخ الجيد حولهم حتّى يستطيعوا تحقيق الهدف من وراء أبحاثهم حتى لا تتحوّل إلى مُجَرّد تجارب فاشلة، وقال أيضًا "إنه لا يُمْكن لعالم مصرى يُعانى من ضيق الحال أن يُنْتج بحث علمى"

وأكّد زويل أن تحقيق التقَدّم المُجْتَمَعى لا يتطلّب أجيالاً كما يَدّعى البعض، وإنما أثبتت التجارب أنه يُمكن تحقيق ذلك خلال ١٠ إلى ٢٠ سنة، وذلك عبر أُسس وقواعد علمية، وفكر جديد مُدَلّلاً على ذلك بـ"تايوان" التى زارها مؤخرًا ليجدها مُخْتَلفة جذريًا عن زيارته لها قبل ١٠ سنوات حيث التقدم العلمى والتكنولوجى الكبير،

والبحث العلمى القوى.

ولفت زويل النظر إلى ضرورة وجود الوعى لدى المُجتمع بأهمية البحث العلمى، والحاجة الدائمة إلى المعرفة، مضيفًا أن البحث العلمى عبارة عن تَجَمّع للعقول النابغة، التى يجب أن يتاح لها المناخ المُناسب دون وجود قيود حتى تصل للنتيجة المأمولة.

- إننا بذلك بَعُدْنا عن موضوع المعلّم الذى بدأنا الحديث بصدده اليوم، وجَرّنا الحديث عن البحث العلمى، وهو خارج نطاق وزارتنا.

- إنها حَلَقة واحدة.... موضوعات مترابطة ومتشابكة.... إهمال حال المُعلّم، وتهميشه، واستصغار دوره فى المجتمع يؤثر بالسلب على النظرة إلى العلم وأهميته، وإهمال دور العلم فى اللحاق بالمجتمعات المتحضّرة، والنظرة الدونية له تُؤدى إلى التخلف وازدياد أمراض وعلل التعليم، وبالتالى لا تكون هناك تنمية حقيقية..... أنا أعتقد أن من أكبر الأسباب لهذه العلل... التى أوشكت أن تكون مُستَعْصية هى غياب مراكز البحث العلمى لأنها هى التى تُنْتج المعرفة، وتختبرها، وتُجَرّبها وتتيقن من صدقها، ثم يأتى دور المدارس والمعاهد والجامعات لتكون هى مراكز النشر والتسويق والمعلومات، وهنا يَبرز سؤال.... ما قيمة هذه الجهود المُفْتَرَضَة من أبحاث ودراسات إذا لم يوجد المعلّم المُؤهل لتوصيلها بالطريقة الصحيحة؟

- ماذا تَقْصد بالمعلم المؤهل؟

- المعلم الذى أعددناه من كل الجوانب.... العلمية والتربوية والفكرية والثقافية.... المعلم الذى ينظر إليه المجتمع نظرة التقدير والثناء، وله دخل مادى مناسب يتناسب مع ما يُقّدمه من جهد... يُغنيه عن تشتيت جهوده، وكذلك الحفاظ على كرامته.... فى هذه الحالة يستطيع أن يُؤدى رسالته وهو يَقف على أقدام مطمئنة، كذلك يرتبط أداؤه العلمى والتربوى بعُنْصر القُدْوَة الحسنة.

- القُدوة الحسنة؟

- نعم القدوة الحسنة هى التى تُعْلى من قيمة المُعَلّم، وتُؤكد قيمة العلم، وهى أساس التربية الصحيحة التى ننشُدَها، ولنا فى الرسول الكريم ﷺ القدوة والمثل، فقد كان تأثيره على من حَوله من الصحابة تأثيرًا إيجابيًّا وفعّالاً لأنه كان قُدْوَة إيجابية فى كل شىء، فانتقلَت فاعليتها إلى من حوله من الصحابة، فكان هؤلاء على اختلافهم أساتذة مرموقين كان لهم الفضل فى تعليم الأجيال، بل وتدريبهم،

وجُمعت بهم شعوب وأمم من الناس، وقد أشار القرآن الكريم إلى فضل القدوة التى تمثّلت فى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى فى سورة آل عمران ١٥٩ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ صدق الله العظيم.

- صَدَق الله العظيم.... من كلامك تؤكّد أن المعلم له الدور الرئيسى فى عملية النهوض بالتعليم.... بل هو الدور الذى يجب أن يَسْبق الأدوار الأخرى.

- هذا صحيح، ولكن ليس كل إنسان يصلح أن يكون مُعَلّمًا... أولاً يجب أن يكون خريج كلية تربوية، قادرًا على استخدام الأدوات والتقنيات الحديثة فى التعليم، ويمتلك أدوات العصر الحديثة..... المعلّم القادر على بناء الجسور ما بين المجتمع والعالم من متغيرات وبين حاجات ومطالب المُجْتَمَع.... المعلّم القادر على تبسيط تلك المفاهيم والأدوار الجديدة لعقل وفهم التلاميذ، وأن يُمَهّد من خلال الأنشطة المصاحبة للمنهج لتقريب المعانى، والمفاهيم الجديدة..... المعلم الذى يدفع تلاميذه للتأمل والتفكير والابتكار والإبداع..... المعلم الذى يَصل بتلاميذه إلى آفاق العلم الرَحْبَة، وأن يُبْهرهم بما يحتويه، وأن يَدْفَعهم إلى سَبْر أغوار هو معرفة أسرار هو اكتشاف الحقائق..... المعلم القادر على أن يربط ما يحدث فى العالم من ثورات علمية وتكنولوجية وديموقراطية، وبين ما يحدث فى مجتمعنا لتدفع المقارنة إلى الإصرار على التغيير، والبعد عن التبعية، وتقليل فجوة التخلّف.

- أنت تتكلم عن معلم مثالى..... أين لنا بمثل هذا المعلم؟!

- مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة واحدة، والإنسان المصرى يفعل المستحيل إذا وفرت له الدوافع والإمكانات.... انظر إلى الأهرامات، وإلى السد العالى، وإلى حرب أكتوبر المجيدة.... المصرى يفعل المستحيل إذا استنفرت قدراته.... البداية إقناع المجتمع بأهمية التعليم، وأنه طوق النجاة للخروج من نفق التخلف..... ليكن ذلك هو المشروع القومى الذى يُشارك فيه المجتمع كله.... ذلك هو المطلوب اليوم وليس الغد.

للأسف.... بل المحزن أننا أصبحنا نحمل صفة قبيحة.... هى عار علينا.... وعار أن نستسلم لها، وهى أننا أصبحنا أُمّة غير مُتَعَلّمَة..... أُمّة غير مُهْتَمّة بالبحث العلمى، ولا التفوّق العلمى.

نظرة سريعة إلى جائزة نوبل التى تُقَدّم منذ عام ١٩٠١، ونختار ثلاث مجالات علمية

هى الطب والكيمياء والفيزياء، ونتظر إلى الفرق بيننا وبين سائر الأمم منذ ١٠٠ عام سنكتشف الكارثة..... فلم يحصل على أى جائزة من المُسْلمين سوى اثنان..... عالم باكستانى، ود. أحمد زويل فى حين أن ٨١ أمريكيًّا حصلوا عليها فى الطب و٤٥ فى الكيمياء، وهناك ٢٦ بريطانيًّا حصلوا عليها فى الطب، و٢٠ فى الكيمياء، و٢٥ فى الفيزياء.

عار علينا أننا غير موجودين على ساحة البحث العلمى..... كل المُخْتَرَعات فى ٢٠٠ عام نستَوردها..... الكهرباء... القطارات... الكمبيوتر.... الموبايل..... حتى القلم الجاف وسجادة الصلاة والمسبحة نستوردها من الخارج.

- هذا موضوع خطير يحتاج إلى تفكير... ولتتركنى الآن فأنا أحس بتعب شديد، ولنرجئ الحديث إلى الغد إن شاء الله.

يهز رأسه فى أسف ويقول بصوت خفيض:

- إن شاء الله.

obeikandl.com

obeikandl.com

(٥)

الدين المجنى عليه!!

..... الإسلام يحترم وجود وحياة وحرية وحقوق غير المسلمين، فكل من يعيش على أرض الوطن مواطن، ويجمع بين كل أفراده المواطنة، ولا يعترف بتقسيم المواطنين تبعًا لأديانهم، وعندما ادعى الاستعمار أنه سيبقى للدفاع عن حقوق الأقليات كان المسيحيون يُسابقون المسلمين فى قتال ورفض الاستعمار البريطانى.

obeikandl.com

- أخيرًا ظهر الاهتمام بالدين، واتجاه الوزارة لتغيير المناهج الدينية.

- هذا شيء طبيعي تفرضه الضرورة للتواؤم مع متطلبات العصر!

- يقول بعض المراقبين إن ذلك نتيجة ضغوط أمريكية وغربية.

- هذه أقوال غير صحيحة، ونحن لا نقبل ذلك، ولكننا نتحرّك تبعًا لمصالحنا ومسئولياتنا، وكما ترى نحن نُشرك معنا القمم الدينية الإسلامية والمسيحية.

- شاهدت مع الملايين غيرى المؤتمر الصحفى الذى عقدته مع الدكتور على جمعة مفتى الجمهورية.

- قررنا إرسال كافة المناهج الإسلامية من الصف الأول الابتدائى إلى نهاية المرحلة الثانوية إلى فضيلة المفتى لوضع معايير جديدة لهذه المناهج، وكذلك إرسال مناهج الدين المسيحى إلى البابا شنودة لنفس الغرض.

- وهل ترى كفاية هذه الإجراءات، وهى تغيير المناهج لحل مشكلة تدريس التربية الدينية فى المدارس!

- طبعًا... وهل يوجد شيء آخر؟

- أكيد.... المشكلة ليست فى المناهج، ولكن المشكلة تَكُمن فى إشعار التلميذ بأهمية المادة، يكفى أنها مادة بلا مُعَلّم!

- بلا معلّم.... كيف ذلك؟

- لو سألتك ما هو المعلم الذى يُدَرس مادة الدين الإسلامى فى المدرسة سوف تكون الإجابة هو معلّم اللغة العربية، وهو بالقطع غير مُؤهل لتدريس مادة الدين الإسلامى، وكذلك المعلم الذى يُدرس مادة الدين المسيحى هو المعلم المسيحى فى المدرسة... يُمكن أن يكون معلم رياضيات أو مُعلم علوم أو حتى موظف فى شئون الطلبة، وهو وإن قام بهذه المهمة يكون مُجْبَرًا ومتبرمًا، واحيانًا يرفض، وكم من مشاكل حدثت فى هذا الخصوص، والأمر يكون أكثر صعوبة لو كان الموضوع فى المرحلة الثانوية، والله أنا شهدت بعض مدرسى المرحلة الثانوية لا يُحْسنون قراءة آيات القرآن الكريم، ويتعرضون للسخرية والنقد من التلاميذ!

- هذه المشكلة لم يُشر إليها أحد من قبل! ولكن كيف يكون الحل فى رأيك؟

- أن الذى يُدَرّس المادة يكون معلّم مُتَخَصّص، فاهمًا للمادة ودارسًا لها، غيورًا عليها، مُقبلاً عليها، وليس مقهورًا على تدريسها!

- والله هذا كلام معقول، ولا خلاف عليه.

- لذلك يجب أن تُسْرع الوزارة بالتعاقد مع مُدَرّسين متخَصّصّين فى الدين الإسلامى من خَريجى الأزهر، حتى يَستطيعوا تَدْريس المادة بطريقة صَحيحة، كذلك الحال بالنسبة لمدرّسى الدين المسيحى يكون مُتَخَصصًا فى مادّته.... واعيًا لها، ومُقْنعًا للتلاميذ..... هنا تكون الثمرة، وبذلك تتأكد أهمية الدين عند التلاميذ.

الأخلاق الحميدة إنما تُكْتَسَب بالتّعَلّم..... وكُلّما كان تَعَلّم الأخلاق مرتبطًا بالدين.... نابعًا من تعاليمه كُلّما علَت قيمتها، وتأكدت معانيها، وارتبط بها الإنسان المُتَعَلّم، ولازمه نورها وهُداها حتى آخر عُمْره.

الحقيقة الواقعة أننا كُلّما نظرنا حولنا فى كل مرافق حياتنا وجدنا انحدارًا رهيبًا فى الأخلاق..... الكل بلا استثناء يشكو من الفساد، والغالبية تُعانى من الظلم..... قال أحد الفلاسفة يومًا فى لقاء تليفزيونى "غياب العدل هو الأساس فى كُل ما نُعانيه"

الرشوة أصبحت واقع نسوق لها المُبررات.... سمعت مرة من أحد رجال الدين أن الرشوة ليست حرامًا لأن الإنسان الراشى مُجبَر عليها حتى يقضى مصالحه، وقال بعضًا من رجال الأعمال إنه بدون الرشوة لن يستطيعوا أداء مصالحهم، ثم أن الموظف مرتبه قليل.... فماذا يفعل ليستطيع العيش!

الغش أيضًا أصبح واقع لا نستطيع أن نغيّره، ولم يعد أحد يستنكره على التلاميذ بل ونشجعهم عليه، ونسمع عن مكتبات تبيع أنواع مختلفة من البرشام من كل الأنواع وكل المواد، بل وسمعنا عن مكتبات تبيع الامتحانات نفسها جُملة وقطّاعى!

الكذب والتزوير أصبح الطريق الملكى للوصول إلى الهدَف..... مثلاً التلميذ الذى يذهب إلى عيادة الطبيب (طبيب التأمين الصحى فى المدرسة) ويتفق معه على استخراج شهادة مرضية مُقابل مبلغ من المال، وبمباركة من ولى الأمر..... ماذا يتعلّم هذا التلميذ؟ وماذا يُنْتَظر منه عندما يتخرّج؟ وماذا علّمناه من قيم الأمانة والصدق والصراحة والصدق.

لا سبيل إلى العلاج إلاّ اللجوء إلى الدين.... عن طريقه يتعلّم التلميذ الأخلاق عملاً وسلوكًا، ويرفض أن يلجأ إلى الكذب والغش والتزوير والوصول إلى الهدف بأساليب هابطة!

الرسول الكريم ﷺ قَصَرَ رسالته العظيمة على تعليم الأخلاق لأنها المفتاح لكل أبواب الفلاح والنجاح فى الدنيا والآخرة فقال "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق"

ويقول المعصوم أيضًا عندما سُئل "من أحب عباد الله إلى الله؟.... قال: أحسنهم خُلُقًا"

ويقول أيضًا "ما من شىء أثقل فى ميزان العبد يوم القيامة من خُلُق حسن"

الخُلُق الحسن إذا ساد بين أفراد الأمة أُقيم فيها العدل والمساواة والحُرّيّة، ويتعامل أبناؤها بقيم التراحم والتآخى والتعاون، فتنهض الأمة وتزدهر حضارتها، وتعلو قيمتها بين الأمم.

يُؤكد شيخ الإسلام "ابن تيمية" رحمه الله هذا المعنى بقوله: "إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يُقيم الدولة الظالمة وإن كانت مُسْلمة"

أمير الشعراء أحمد شوقى " رحمه الله له بيت شعر بليغ يؤكد فيه أن بناء الأمم وبقاءها وازدهار حضارتها ودوام منعتها إنما يُكفَل لها ما بقيت الأخلاق فيها، فإذا سَقَطَت الأخلاق سقطت الأمة..... فيقول:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ما نراه حولنا يُمَثل أزمة أخلاق تكاد تعصف بالأمة، وتُقَوّض أركانها..... كل واحد يشكو من الكُل.... لا أحد فى المجتمع لا تُوَجّه له أصابع الاتهام فى أنه مُنحرف وغشاش وظالم ومُستبد..... إن دَلّ على ذلك فإنما يدل على فساد المُجْتَمَع كلّه..... كما يؤكد ذلك إمام الدعاة الشيخ محمد متولّى الشعراوى رحمه الله "إذا رأيت كل فرد فى المجتمع يشكو من الآخرين فتأكّد أن الفساد يطول الكُل ويَعُم المجتمع"

الجرح ينزف بشدة..... لا بد من التدخّل فورًا، ولكن بشرط الإيمان والإخلاص والعمل لوجه الله..... لوجه الله فقط..... هنا سيقف الله معنا ويشد من أزرنا ويُساعدنا.

البداية هى تعليم الدين بمناهج مناسبة، وعن طريق مُعلمين متخصصين، وإعطاء المادة أعلى الدرجات ليكون لها أعلى قيمة، وأن يكون لها درجات فى المجموع.

نحن فى حاجة ماسّة إلى إعلاء قيمة الدين فى نفوس أبنائنا، ولن يتحقق ذلك إلا عن طريق المُعلّم الذى يُعطى القدوة الحسنة، وأن نسوق للتلاميذ سيَر الرجال العظماء... الذين يحملون أجمل الصفات مثل الصدق والأمانة والكرم والجود والرحمة والعدل والشهامة والمروءة والإقدام ومساعدة الغير، وأن يتعلّم التلاميذ أن هذه الصفات نبتغى بها وجه الله ﷻ ورضاه فتكون لهم طريقًا إلى السعادة والجنّة واجتلاب الثناء والتقدير والإعجاب.

كُنت مديرًا لمدرسة تجريبية كبيرة..... أثناء مرورى شاهدت تلميذًا يُحاول أن يقفز من فوق السور..... ناديته..... جاءنى يُلَملم نفسه وملابسه وأعصابه، ووجهه يفيض بالعرق الغزير من الخجل.

بالطبع توَقّع عقابًا صارمًا..... فصل أو على الأقل استدعاء ولى الأمر..... لكنى صحبته فى هدوء إلى مكتبى.

كان تلميذًا جميل الصورة... مُشرق الوجه... يبدو عليه الثراء ومظاهر العيش الكريم..... سألته فى هدوء وأنا أسمح له بالجلوس أمامى "ماذا يعمل والدك..... وكذلك والدتك؟"..... قال وهو يتلعثم وينظر إلى الأرض "والدى وكيل وزارة فى وزارة المالية، ووالدتى موجه أول التربية الاجتماعية فى الإدارة"..... كُنت أعرف والدته..... سيدة مُحْترمة وفاضلة.

قُلت له فى هدوء "يعنى أنك من بيت كريم، ولك والدان مُحْتَرمان.... عليك أن تفخر بهما ولا تفعل شيئًا يسوءهما"

لم يرُد التلميذ.... وواصل نظراته إلى بوز حذائه.... عاجلته بسرعة..... ماذا تريد أن تكون فى المُسْتَقبل..... حرامى؟!

رفع التلميذ رأسه وبان عليه الفزع والدهشة، ولكنه بقى صامتًا..... واصلت حديثى "انطق.... تَكلّم.... هل تُريد أن تكون حرامى؟

قال بصوت مُتَلَعْثم مستنكرًا: حرامى؟!..... لا طبعًا.

قُلت له بصوت حاد "ما فعَلْتَه الآن يدلّ على ذلك..... لا يقفز من فوق الأسوار إلا اللصوص والحرامية..... أليس كذلك؟

قال التلميذ بسرعة ووجهه يزداد احمرارًا "سوف أقول لك الحقيقة يا سيادة المدير"

أجبته على الفور "هذا ما أُريده"

قال التلميذ "بصراحة أنا عندى درس خاص الساعة ١١ عند مدرس اللغة العربية، وأنا بين نارين إمّا أن أغيب عن المدرسة، أو أهرب كما رأيتنى..... هذا تصَرّف غصبًا عنى..... الحقيقة هذه ليست أول مرة، ولست الوحيد الذى يفعل ذلك فى المدرسة..... حتّى البنات تفعل ذلك..... ماذا نفعل إزاء هذه المُشكلة؟!

قلت "تفعل التصرف السليم.... تأتى لى وتطلب إذن بالخروج، وسوف أعطيك الإذن.... أنت طالب فى ثالثة ثانوى ولا أخاف عليك.

سأل التلميذ فى دهشة "هل صحيح ما تقوله يا سيادة المدير؟"

رددت عليه وأنا أبتسم "طبعًا..... الناس المحترمين تفعل ذلك ولا تقفز من فوق الأسوار، وتُسىء إلى نفسها، وإلى المدرسة.... فقط عليك أن تكتب لى تصريح بالخروج وعليه رقم تليفون البيت، أو تُحضر لى ورقة من ولى أمرك يوضح فيها طلب الإذن والساعة المطلوب فيها الخروج؛ حتى يكون البيت على علم والمدرسة أيضًا.

هكذا يكون التصَرُّف السليم..... تصرف يتَّسم بالصدق والصراحة، وتدخل المدرسة رجلاً مُحْتَرَمًا، وتخرج منها رجلاً مُحترمًا.

أردفت كلامى بإعطاء تصريح للتلميذ للخروج من المدرسة ليلحق بزملائه الذين هربوا من فوق السور قبله، ولكنى عرفت أسماءهم، وأرقام تليفوناتهم، وكان لى حديث طويل مع أولياء أمورهم بعد ذلك.

تساءلت يومها من هو المُخْطئ..... المُدرس الذى هرب من مدرسته ليُعْطى درسًا خاصًّا الساعة الحادية عشرة صباحًا..... أم ولى الأمر الذى يسمح لابنه ليأخذ درسًا خاصًّا فى هذا الوقت، وهل يعلم بحقيقة هرب ابنه من المدرسة، وربما يُشَجِّع عليه!..... أم التلميذ الذى لم يجد مفرًّا إلا الهرب من المدرسة.... أم الخطأ فى النظام المدرسى وطريقة تسجيل الغياب أو فى غياب دور المُعَلِّم التعليمى والتربوى..... من المؤكد أن المسئولية تقع على عاتق النظام كلّه.

قصدت من هذه الحكاية أن أُسَلِّط الضوء على لقْطَة بسيطة فى النظام التعليمى كلّه والتى تتصل بالأخلاق... موضوعنا اليوم... تلميذ يقفز من فوق السور ليتلَقّى العلم على يد مُعَلِّم "مزَوّغ" من عمله.... هارب من مسئوليته، ويُحَرِّض التلاميذ على الهرب من المدرسة..... أى قُدْوَة وأى مثَل؟!

- شىء مؤسف..... سوف يكون هذا الأمر موضع دراسة وتفكير.

- حسنًا..... لكن هذا ليس كل شىء..... هناك أمر آخر.

- ما هو يا ترى؟

- أن نعمل على تأكيد أهمية الدين عند التلاميذ.

- هذا شىء مفروغ منه، ومعروف.

- سياسة الوزارة تَعْمَل عكس ذلك.

- كيف ذلك؟.... وما دليلك على قَولك؟

- الدليل واضح ومعروف..... يكفى أن مادة الدين لا تدخل درجاتها فى المجموع، وذلك بالقطع ينعكس على درجة اهتمام التلميذ بالمادة، وهو اهتمام غير موجود، وينعكس بالسلب على المادة!.... لن أطالبك بالرد حتى لا يكون هناك حَرَج.... هى أسباب معروفة يتناولها الناس سرًّا وعلانية.

سوف أُذكّرك بواقعة.... أكيد سمعت عنها.... فنحن من جيل واحد....

هذه الواقعة وصلت أحداثها إلى أروقة مجلس الشعب.... تلميذ مُتَفَوّق حصل على الثانوية العامة بمجموع أكبر من ٩٥٪، ولكن هذا التلميذ المُتَفَوّق كان راسبًا فى مادة التربية الدينية، وتبعًا للقانون يُعْتَبَر راسبًا وعليه إعادة السنة.

أزعج هذا الأمر بعض الناس، ونادوا – من واقع حرصهم على مُستَقْبَل التلميذ – أن يُعتبَر ناجحًا، وقال أحدهم بسخرية تصل إلى حد الوقاحة "وإيه يعنى راسب فى الدين.... هذا تلميذ مُتَفَوّق!"

وافقه للأسف من هم على شاكلته، وانتقل الموضوع إلى مجلس الشعب، وانقسم الأعضاء ما بين مؤيد ومعارض، ولكن صوت العقل والحق انتصر، واعْتُبر التلميذ راسبًا، ولكن الأمر ترك المرارة فى النفوس، وكان على أولى الأمر وقتها أن يتنبّهوا لهذه الكارثة.

يا سيدى.... بعد إقالة الراحل العظيم الدكتور حلمى مراد وزير التربية والتعليم السابق، وكل الوزراء من بعده يعملون على هدم مادة التربية الدينية، بل وحذفها وإلغائها.... خرجت المادة من المواد الأساسية، ومن مجموع درجات الامتحان، وسواء حصل الطالب على درجة عُليا أو دنيا فلا قيمة حقيقية للمادة، ولا تأثير لها بالنسبة له!

- قبل أن تسترسل فى الكلام أريد أن أعرف لماذا وصفت الدكتور حلمى مراد بالراحل العظيم؟

- سوف يكون الرد على سؤالك بما شهد به الشيخ محمد الغزالى رحمه الله فى حقه فيقول:

"أشهد أن الرجل كان حاد البصيرة.... عميق الإخلاص.... راغبًا فى إنشاء جيل أفضل وأقدر على مواجهة غَده الثقيل"

ويقول الشيخ الغزالى أيضًا:

"ألف الدكتور حلمى مراد وزير التربية والتعليم الأسبق لجنة لدعم النواحى الدينية فى التعليم العام وإصلاح مقرراته بما يعين على إنشاء جيل مُسلم، وقد أُخرج الدكتور من الوزارة (!!) بعد أن أدّت اللجنة واجبها، فاستقذنا هذه المقررات لإحدى الشعب التى اختصّت بالجو المدرسى، واخترت لنفسى أن أكون فى اللجنة المعنية" بالجو الذى يسود المدرسة "لأن التربية المدرسية فى نظرى هى الدعامة الأولى للإفادة من العلم المبذول كما أنها الدعامة الأولى لإمداد أمتنا برجال ذوى معادن صلبة ومواهب راجحة وفضائل بارزة"

أعتقد ليس هناك شهادة أعظم من هذه الشهادة فى حق الدكتور حلمى مراد.

- أكيد.... عندك حق.

- أواصل حديثى الذى انقطع..... فى عهد الرئيس السادات رحمه الله وغفر له، وكان يحلو له أن يُلَقّب بالمُؤمن، وعقب ما سُمّى وقتها بالفتنة الطائفية... ظهر على شاشة التليفزيون، واقترح تدريس ما سُمّى بالمادة المشتركة للتربية الدينية، ولكن تصَدّى له ولمُخَطّطه الإمام الراحل عبد الحليم محمود، ورفض ذلك بشدّة، بل وكتب بيده أسباب الرفض الذى نُشر فى مجلّة الاعتصام.

ولكن أحد وزراء التعليم وقتها قام بتفريغ المادّة من محتوياتها الأساسية، واكتفى ببعض الفضائل والقيم الهامشية، وقام أيضًا باختراع كتاب ليس هناك ما هو أسخف منه لتدريس مادة اسمها "الأخلاق" ولكنه أُلْغى بعد ذلك!

الغريب أن مشروع إحياء هذه المادة السخيفة يتردد الآن، وكأننا لا نستفيد من التجارب الفاشلة!

الأخلاق لا يتعلّمها التلاميذ من الكتب.

يقول الإمام الغزالى فى هذا الشأن:

"لا نستطيع أن نربى الطالب تربية دينية كاملة إلا إذا هيّأنا له جوًّا روحيًّا فى مدرسته وفى بيته ليكون هذا المناخ الدينى من وسائل التعلّق بهذه القيم والانتفاع بها، وبهذا تتلاقى المعارف الدينية التى تلقّاها من مُدَرّسه ومن كتابه بالجو المصبوغ بالصبغة الدينية النقية فتتحوّل المعرفة النظرية إلى سلوك دينى كما تتحول البذور فى الجو الملائم إلى زهور وثمر."

بذلك يُمكن تثبيت العقائد وإلف العبادات، وتزكية الأخلاق، وتكوين جيل نزّاع إلى الحق والخير، ومتعاون على البر والتقوى.

ولكن من المؤسف أن نرى التلاميذ يهربون من حصص التربية الدينية ليحضروا حصّة مفيدة من وجهة نظرهم..... هذه الحصة ربما تكون لغة انجليزية، أو علوم، أو أى مادة مما تُدخل فى المجموع.

- هذا كلام مؤسف.... بصَراحة لم أسمع ذلك من قَبْل!

- هذا واقع يَعْرفه كل من يَعْمَل فى الميدان الفعلى وهو المدرسة، وليس لك ذنب فى ذلك، فكيف لك أن تَعرفه وقد هَبَطت على الوزارة من المجهول، ولم تُعايش المهنة معايشة واقعية، ولم تتمَرّس على مشاكلها!

- تُحاول دائمًا أن تُحْرجنى بهذا الكلام.

- عذرًا.... لم أقصد شيئًا، ولكنى أردت أن أقرر شيئًا واقعًا، وهى للأسف قَدَر هذه الوزارة التعيسة التى دائمًا يُديرها أناس من غير أهلها!

- ليس ذلك ذنبى، ولكنى تَعَوّدت أن أبذل جهدى لأكون أهلاً للموقع الذى أتولاه، وأن أتصَدّى لكل المشاكل الموجودة.

- أرجو ألا تكون نوعًا من تَصْريحات الوزراء التى اعتادها الناس، ويتندرون عليها.

- لا.... أنت ترى بنفسك.... أحاول أن أتصدى لكل الفساد الذى فى الوزارة، وأتَحَرك فى كل اتجاه لأضرب من حديد على كل عوامل الإهمال والفساد!

- أدعو الله أن يُعينك، ولكنى نسيت شيئًا كُنت أريد أن أقوله فى موضوع تدريس مادة التربية الدينية.

- قُل ما تُريد..... هل يوجد شىء آخر؟

- هو شىء أريد أن أسجله أمامك للوزير الدكتور أحمد جمال.

- ثانى!..... دائمًا الدكتور أحمد جمال.... هل لأنه بلدياتك.... من المنصورة؟

- لا... ليس ذلك، ولكنه كان إنسانًا فاهم، وراقيًا، ويَعْرف لسانه كيف يتكلّم، وعَقله كيف يُفَكّر.

- ماشى يا سيدى..... ما هو هذا الشىء الذى تُريد أن تُسَجّله؟

- قبل ذلك أريد أن أسألك سؤالاً.

- تَفَضّل..... اسْأل.

- هل تَعْرف أن الوزير إياه أصدر قرارًا بمنع المساجد فى المدارس؟

- يا ساتر..... قرار.... كيف ذلك؟

- هذا ما حدث..... ولو زُرْت المدارس التى بُنيت فى عهده لتَأكّدت من ذلك.

- وما الذى دَفَعه لإصدار مثل هذا القرار الخطير؟

- لا أدرى والله، ولكنها الحقيقة التى أصابت الناس بالرعب والدهشَة، ولكن كان يتم التحايل على هذا القرار بطرق عديدة، فالمسجد فى المدرسة له رسالة عظيمة كمركز تَعْليمى قبل أن يكون مكان لقضاء الفرائض.

- أنا نفْسى تَعَلّمْت الصلاة فى مسجد المدرسة، وكُنْت عضوًا فى الجماعة الدينية فى المدرسة. ذكرت الدكتور أحمد جمال فى هذا الشأن، ولكنك لم تذكر ما فَعَله.

- آه.... نسيت.... عندما سمع بهذا القرار المشبوه ألغاه على الفور.

- حسنًا فَعَل..... لو كنت مكانه لفعلت مثله.

- أكيد.... والله أصَدقّك، ولكن اعذرنى أن أفتح موضوع المؤتمر الصّحَفى الذى عَقَدته مع فضيلة المُفْتى الدكتور على جُمْعَة، والذى أدّى إلى إغضاب الكثيرين، ووجدوا فى بعض ما جاء فى المؤتمر إساءة للدين الإسلامى.

- إساءة.... أسْتغفر الله العظيم.... ماذا تقول؟

- أنت قُلْت إن المناهج الحالية للدين الإسلامى تُحَرّض على العُنف..... أليس كذلك؟

- لا... لا... ليس صحيحًا..... لم أقل ذلك بالضبط..... أنا قُلْت توجد عبارات فى مناهج التربية الدينية الإسلامية فَسّرَها البعض أنها تُحَرّض على العُنْف، وذلك بالطبع بعيدًا عن سماحة الإسلام.

- هل تذكر لى من هؤلاء "البعض"؟

- هم الذين يسعون إلى تشويه وجه الدين الإسلامى فى الداخل والخارج والذين يريدون الوقيعة بين المسلمين والمسيحيين، ويحاولون تفسير العبارات والكلمات بما ليس فيها.

- لا يتردد هذا الكلام إلا فى سنوات الضعف والانحطاط.... الصحيح أن نحاورهم.... لا أن نستسلم لهم، ونحقق لهم أغراضهم وأهدافهم، وألا ننزلق إلى ترديد عبارات أو

ألفاظ تسيء إلى الدين الإسلامى، وهذا بالطبع يُرَسخ المفهوم المعادى بأن هناك اضطهاد وعنف ضد المسيحيين!

كان يجب عليك أن تسأل نفسك أولاً كيف يكون الإسلام دينًا ربّانيًا... يَحُض على العُنف والاضطهاد والتمييز.

هل يكون الجهاد من أجل الدفاع عن النفس، وعدم الاستسلام للغزاة القَتَلَة يكون ذلك حَضًا على العُنف..... ألم تقرأ قول المولى ﷻ ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ صدق الله العظيم.

هل يكون الوقوف ضد أطماع الصهيونية، ومقاومة مخططاتها لنهب الأرض والثروات، والوقوف فى وجه الصهاينة السفّاحين المُغتصبين لفلسطين، والذين يعملون على هدم المسجد الأقصى، والتنكيل بأصحاب الأرض والاعتداء عليهم.... بل إن مخططاتهم تَعَدّت ذلك إلى التآمر ضد العالم العربى والإسلامى كُلّه..... هل يُسمّى ذلك تحريض على العُنْف والقتل..... أى عُنف وأى قتل؟!

وكيف لأحد أن يتخيل أن الأزهر الشريف يوافق على تأليف كتاب فى التربية الدينية، وفيه ما يُحَرّض على العُنف والكراهية؟!!

للأسف كان ما أعلنته سيادتك متوافقًا تمامًا على ما تُريده إسرائيل والغرب وأعداء الدين والوطن فى الداخل، فأشادت صحيفة (إسرائيل انترناشيونال نيوز) بإعلان وزير التعليم المصرى، ودار الإفتاء المصرية عن إدخال تعديلات على المناهج الدراسية بما فيها منهج التربية الدينية الإسلامية لوقف ما وُصف بالتحريض على العُنف والكراهية داخل المناهج!

كما عَبّرَت الصحيفة عن سعادتها لقرار حذف جميع آيات الجهاد من جميع المناهج الدراسية فى مصر بحُجّة أن تفسير هذه الآيات يتم بطريقة خاطئة!

تُطابُق فى الرؤى والهدف، وإشادة من صحيفة القتلة والغزاة والمُحْتَلّين، ومُخَرّبى المسجد الأقصى!!!!

نحن فى حاجة إلى مواجهة هذه التوجّهات الآثمة بتعلية قيمة الدين، والاعتزاز به، وأن يكون التركيز على أن الإسلام لا يعرف العُنف والاضطهاد والتمييز وأن الحُكم بالإسلام لا يعرف هذه الفروق بين أبناء الوطن الواحد، ولا يعترف بمسميات الأقلية التى ابتدعها الاستعمار، وأن الإسلام يحترم وجود وحياة وحرية وحقوق غير المسلمين،

فكل من يعيش على أرض الوطن مواطن، ويجمع بين كل أفراده المواطنة، ولا يعترف بتقسيم المواطنين تبعًا لأديانهم، وعندما ادعى الاستعمار أنه سيبقى للدفاع عن حقوق الأقليات كان المسيحيون يُسابقون المسلمين فى قتال ورفض الاستعمار البريطانى.

- هذا حقيقى وأعرفه، ولكن الحكومة تُريد أن تَسُد كل باب تأتى منه رياح المتاعب والفتنة، حتى أنها لا تسمح بإقامة أحزاب دينية!

- هو فى الحقيقة الخوف القديم من وصول رجال الدين إلى الحكم..... ليس فى مصر فقط.... بل حتى فى العالم الغربى..... شبح الماضى يُطل برأسه، وقت أن سادت الحكومات الدينية المسيحية، والتى ابتكرت وسائل للتعذيب لا تخطر على بال الشيطان نفسه، وعندما اتخذ بعض الحكام سلطة الكنيسة فى نشر الإرهاب، والتسلّط والخوف، وحرق العلماء وهم أحياء، وشنق كل من يَحُمل فكرًا جديدًا، أو عنده قَبَس من نور، وكذلك الاعتداء على الدول فى الشرق الإسلامى وسلب مُقَدّراتها، وانتهاك حُرّيتها، واستعمار أراضيها، وقتل مواطنيها بحجج واهية.... عارية وساقطة، وليست الحروب الصليبية إلا عنوانًا دامغًا على هذا النوع من الحكم الدينى الخسيس، وهؤلاء الذين يرتدون ثياب الدين لا علاقة لهم بالدين السمح الذى أتى به المسيح ليشيع الحب والتسامح وحب الإنسان لأخيه الإنسان.

أيضًا ما قام به البعض فى تحميل الإسلام بأوزار بعض الساسة فى بعض الحكومات الإسلامية، وهو أبعد ما يكون عن ذلك، حتى أن بعض المؤرخين نسبوا للحجاج أيام حُكم بنى أُمية ما فعله من جرائم يَتَعَجّب لها الشياطين بأنه كان حاكمًا دينيًا بالرغم من أنه أباد البقية الكريمة من أصحاب الرسول الكريم ﷺ، حتى أن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز قال عنه "لو جاءت كل أمة بخطاياها، وجئنا نحن بنى أمية بالحجاج وحده لرجحناهم...!!"

الناس تخاف من كلمة "الحكومة الدينية" مسلمين ومسيحيين..... تجارب الماضى ما زالت عالقة بالأذهان، ولكن الواقع أن الحكم بالإسلام الصحيح يُحَقق العدل والمساواة ويشيع العدل، ويبعث على الطمأنينة، ويستوعب كل عناصر الأمة، ولا يَعْترف بمسميات الأقلّية.

من العبث أن نسمى الحكومة الإسلامية المنحرفة حكومة دينية، ويحمل الإسلام أوزارها!

- كلامك صحيح، ولكن ألا ترى أن كل المناهج بما فيها مناهج التربية الدينية فى حاجة إلى تعديل من حذف وإضافة، أو حتى تغيير كلى تبعًا لما تقتضيه المصلحة، والتقدم العلمى؟

- أرى ذلك طبعًا، ولكن الغريب هو قيامك بزيارة دار الإفتاء، وعمل مؤتمر صحفى هناك أثار القيل والقال، ولكن يحضرنى سؤال.... ما دخل دار الإفتاء فى عمل وزارتك؟ أليس عندك المجلس الأعلى للتعليم؟ وسؤال آخر.... ألم يراجع الأزهر المقررات الدينية، وإذا كان قد راجعها فكيف يتسنى لك وللمفتى أن تعلنا أن هذه المقررات تتضمن الكثير من قيم وأفكار التطرف الدينى..... لو كان ذلك صحيحًا لما أعلنت الدكتورة كوثر كوجاك مدير مركز تطوير المناهج السابق فى الصحف من أن الأزهر قام بمراجعة تلك المُقَررات، وكيف يوافق الأزهر على ذلك لو كان فيه ما يؤكد هذا الافتراء!

أيضًا.... من المفروض أن تُتَبَع القواعد المعمول بها فى القانون رقم ١٣٩السنة ١٩٨٠ بشأن مُقررات التربية الدينية الإسلامية، وأن يُراجع الأزهر الشريف المقررات، ويتم نفس الأمر بالنسبة لمقررات التربية الدينية المسيحية بعرضها على الكنيسة، وذلك للتأكد من أن المقررات ليس فيها ما يُصادم ثوابت العقيدة.

- على العموم فقد أعلن المفتى أن الأزهر هو المنوط به مراجعة وتطوير المقررات الإسلامية.

- أشعر بأن الموضوع كله انتهى بما يُشبه المقلب من المفتى!

لكن لى كلمة أخيرة اليوم..... فيها خلاصة القول....

- تفضّل

- أرجو العمل على إسناد تدريس مادة الدين للمتَخَصصين، وأن يُحاسب التلميذ على درجة استيعابه وفهمه، وتُضاف درجاتها إلى المجموع، فيسعى التلميذ إلى التفوق..... لتتخَرّج أجيال تملك العقيدة، وتتعرف على القيم والأخلاق، فلا يكون هناك مُرْتَشون ولصوص ومُنْحرفون ومُزَوّرون وغَشّاشون!

obeikandl.com

(٦)

سنغافورة تُطَبّق وصايا الرسول (ﷺ)

المصلحة العُلْيا تتطلّب الجهد والتضحية، لتغيير المفاهيم القديمة.... أعرف أن الأمر ليس سهلاً، ولكن التجربة سوف تثبت للمعارضين أن هذا الأمر لو تم كما يجب فسيكون له أثره البالغ فى تجهيز قيادات حقيقية تنهض بالأداء الإدارى والعلمى فى مدارسنا وإداراتنا، ويمكن أن تُشَجّع تكرار التجربة فى باقى مرافق الدولة التى تُعانى من الفراغ الإدارى.

- ألن تقل لى لماذا كُنت مهمومًا فى اللقاء السابق؟

- حالتى لم تكن حالة خاصة وقتها..... بل هى امتداد لحالة مُستَمرة.

- هل تَقْصد أن تقول إنك مهموم على الدوام.

- نعم.... مثل كل مصرى يُحب بَلده، ويُحب أن يراها فى أعلى مكان.

- كلنا كذلك.... لماذا تنسب ذلك للبعض دون الآخرين؟

- هذه حقيقة يؤكدها هذا التخلف الذى نراه فى مجتمعنا.... نحن أصبحنا نُحب بلدنا بالكلام، وفى مناسبات الخطابة واستعراض الوطنية!

- على العموم لن أترك الفرصة لتسترسل فى مثل هذا الكلام، من المؤكد أن عندك منه الكثير، ولكنى سأرجع إلى الموضوع السابق الذى ختمته بالغموض، وقلت فى نهاية الحديث إن هناك شيئًا مهمًّا نتغافل عنه عمدًا، مع أن الخبراء يتحدثون عنه، ويعرفونه، فما هو يا ترى هذا الشيء؟

- قبل أن أحدثك عنه، دعنى أسألك سؤالاً بسيطًا.

- تفضل يا سيدى.

- هل الإصلاح فى التعليم أو حتى فى أى مرفق حكومى أو خاص يجب أن يبدأ من القاع أم من القمة؟

- مثل سؤال الفرخة والبيضة.

- لا طبعًا... اللّه خالق الفرخة والبيضة، ولكنى أقصد إصلاح التعليم أو حتى المدرسة.

- يعنى.....

- سأقول أنا حتى لا نضيع الوقت..... الرسول عليه الصلاة والسلام كان فردًا واحدًا، نشأ فى مجتمع فيه كل مظاهر الفساد، وحورب حربًا شرسة، وتَعَرّض للاضطهاد والإرهاب والأذى من المشركين، ولكنه صَبَر وناضل واستطاع أن يرفع راية الحق والتوحيد مُتَسَلّحًا بصفات القائد العظيمة التى حباه اللّه بها لينشر رسالة الحق والنور و استطاع أن يؤسس دولة مترامية الأطراف. ولكن ليس كل فرد يستطيع أن يُحَقق ذلك..... توجد مواصفات فى الشخصية والسلوك، وعوامل أخرى

كثيرة يكون لها التأثير الفعال.

واسمح لى أن أعطى مثالاً واقعيًا يحدث باستمرار.... تجد مدرسة ما.... فيها كل ما يخطر على بالك من السلبيات، ثم يحدث أن تُسْند الإدارة العليا مسئولية هذه المدرسة إلى مدير جديد، فتتحول المدرسة إلى مدرسة أخرى تمامًا.... تختفى السلبيات، وتنتظم الدراسة، ويُصبح للمدرسة وجه آخر تمامًا!

سأضرب لك مثالاً آخر عايشناه جميعًا..... الجيش المصرى هُزم فى يونيو ٦٧ هزيمة أصابت الكل فى قلبه، واخترقت سهامها كرامتنا جميعًا، وسمحت للصهيونى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى أن يتهكم على جيشنا، ويقول عنه إنه لن تقوم له قائمة قبل عشرات السنين، ولكن الله خيّب ظنّه تَمَسّك الشعب بجمال عبد الناصر قائدًا فى مشهد درامى أذهل العالم كلّه، وكان ذلك تَعْبيرًا مُدَوّيًا على رفض الهزيمة، وتصميمًا على مَحْو آثارها، ورد الصاع صاعين، فاختار عبد الناصر القادة الحقيقيين المُخْلصين، وبعد ست سنوات فقط كانت حرب أكتوبر المجيدة التى جَعَلَت جولدا مائير رئيسة وزراء العصابات الصهيونية تستنجد بالأمريكان وهى تَصرخ فى رعب "أنقذوا إسرائيل!"

ماذا حدث يا سَيّدى..... الجيش هو... هو، والجنود والضباط هم... هم.... ولكن الذى تَغَيّر شىء واحد.... شىء أساسى.... بدونه يستحيل النجاح... هل تعرف ما هو؟

- طبعًا القيادة. شىء واضح.

- قُلْتها بنفسك " القيادة"..... استبعد جمال عبد الناصر القيادات الفاشلة، وأسند الأمر لأهله، واستعان بالقيادات الحقيقية.... محمد فوزى، وعبد المنعم رياض، ومدكور أبو العز، وصلاح الدين محسن، وفؤاد ذكرى، وحسنى مبارك، ومحمود عبد الرحمن، وغيرهم من القادة العظام..... هؤلاء القادة كانت لهم المواصفات التى تؤهلهم لمواقعهم بفضل العين الخبيرة التى اختارتهم، فنجحوا فى عملهم وتفوقوا وأذهلوا العالم بأدائهم الرفيع، فحققوا نصر أكتوبر الغالى.

- هذه أمور كل واحد يعرفها، ولكن السؤال يبقى ما علاقتها بالعمل فى وزارة التربية.

- ليست بالتربية والتعليم فقط، بل فى كل موقع على أرض مصر ينشد النجاح.... أريد أن أقول إن القيادة السليمة هى أول طريق النجاح.

الحقيقة أننا فى الجامعة ندرس صفات القائد الناجح.... الجسم الفارع، الشخصية المتزنة، التفكير الواعى.... الحنكة... حسن التصرف.... المثقف، وأشياء أخرى لا أذكرها الآن، ولكننا فى وزارة التربية والتعليم نربط الترقيات بالدرجة الوظيفية، والتقارير السنوية الهزيلة، وهذه أشياء لا تُفْرز إلا قيادات هَشّة... أبعد ما تكون عن الصفات التى أشرت إليها، والمتفق عليها بين الخبراء، وإذا حَدَث وخرج لنا قائد نرضى عنه يكون ذلك بالصدفة البحتة!

على سبيل المثال تجد مدير مدرسة كان فى بداية حياته مدرسًا ناجحًا فى الفيزياء أو اللغة العربية.... ممتاز فى مادته، ومعطاء فى مجاله، ثم يجد نفسه يومًا لدواعى الترقية مديرًا لمدرسة ما، وليس عنده من صفات القيادة أى شىء، فماذا ننتظر منه؟!

- ولكن هذا النظام المتّبع يُحَقق العدالة، فمن تنطبق عليه الشروط لا يستطيع أحدًا أن يَحْرمه من الترقية.

- المصلحة العامة يا سيدى تَفْرض علينا أن نضع معايير جديدة لاختيار القيادات فى المدارس والإدارات.

- وما هى هذه المعايير من وجهة نَظَرك؟

- ليست من وجهة نظرى، ولكنها معايير تأخذ بها الدول المتقدمة، وتُصر عليها، وتعمل على تنميتها، والصرف عليها ببذخ، فالقائد الماهر هو خير استثمار للمجتمع، يعود عليه بالنفع الجزيل.

- أكمل إنى أسمعك..... يا ليت تذكر لى كيف يتحقق ذلك؟

- الموضوع يتطلّب تَجْهيز القائد منذ بداية حياته العملية، وتحفيزه لكى يتقدم ويكتسب الثقة، وذلك بالتحفيز المادى والمعنوى، والعمل على تدريبه وصقله، وتثقيفه، ومتابعته واستمرارية التقييم والتقويم، وإرساله فى بعثات ليتعلّم ويكتسب المهارات، ثم الدفع به بالتدريج ليتبوأ مراكز القيادة الصغرى، ثم العُلْيا لو ثبتت كفاءته..... كل ذلك داخل منظومة مُحْكَمَة، لها سياستها وأسلوبها الراقى الذى لا يعرف المحاباة، والمحسوبية.

- هذا الأمر سوف يُسَبب مشاكل كثيرة، وشكاوى لا نستطيع أن نحصيها أو نرد عليها!

- المصلحة العُليا تتطلّب الجهد والتضحية، لتغيير المفاهيم القديمة.... أعرف أن الأمر ليس سهلاً، ولكن التجربة سوف تثبت للمعارضين أن هذا الأمر لو تم كما يجب فسيكون له أثره البالغ فى تجهيز قيادات حقيقية تنهض بالأداء الإدارى والعلمى فى مدارسنا وإداراتنا، ويمكن أن تُشَجّع تكرار التجربة فى باقى مرافق الدولة التى تُعانى من الفراغ الإدارى.

قرأت مقالاً منذ أيام كتبه الأستاذ محمد صابرين فى جريدة الأهرام تحت عنوان "سر مُعْجزة سنغافورة". ويذكر الكاتب فى مقاله أنه لا أحد يَمْلك جوابًا عن سر هذه المُعْجزة إلا رئيس وزرائها "هيش لونج" الذى يقول "شَيَّدنا نظامًا بأكمله على مفهوم أساسى" الجدارة "فأنت موجود فى موقعك لأنك أفضل شَخْص للوظيفة، وليس بسبب علاقاتك أو والديك."

ويقول أيضًا وفقًا للنموذج السنغافورى "لقد استثمرْنا فى التعليم"

رئيس وزراء سنغافورة لم يأت بجديد، فذلك ما نادى به سيد البشرية، ومعلّمها الأول محمد ﷺ، فقد حذّرَنا من أن يتبوأ أحد منصبًا، ويوجد فى الخارج من هو أفضل منه، وقال فى حديث صحيح ما معناه "أن الذى يُسْند عملاً لشخص، وهناك أحد أفضل منه، ويَعْلَمَه.... لا يشم ريح الجَنّة" لأن ذلك مَعْناه الفساد، وانعدام ثقة الناس فى القائمين على الحُكْم.

وهنا يَحْضرنى سؤال.... لماذا المشاريع التى تقوم بها القوات المُسَلّحة تكون مشاريع ناجحة، والأداء فيها مَثَلاً يُحْتَذى؟

- هذا صحيح، ولا يُمكن القول بغير هذا.... هذا ملموس ومُشاهد

- إن رجال القوات المسلحة مصريون مثلنا، ولكنّهم اعتادوا على الجدية، والضبط والربط، وتنفيذ الأوامر، وعدم التهاون، والتخطيط السليم والمتابعة، وكل ذلك تحت إشراف قادة حقيقيين، ومُدَرّبين، ومُؤهلين..... تَمَرّسوا على فنون القيادة السليمة، وفهموا واجباتها، ولهم بالفعل مواصفاتها..... يا ليت.....

- لماذا تَوَقّفْت..... أكمل.....

- سوف تَغْضَب....

- لا... لا... الموضوع يستهوينى بشدة..... ماذا كنت تريد أن تقول؟

- أتمنى... حتى لفترة محدودة أن تستعين الوزارة برجال من القوات المُسَلّحَة لإدارة المدارس، وخاصة فى المدارس الثانوية التى وصل بها الفساد والفوضى حَدًّا لا يُطاق!

إن الأحوال أصبَحَت خطيرة تُهَدد مستقبل الوطن..... الأجيال التى تَتَخَرّج هذه الأيام أصبَحَت قنابل موقوتة..... بل أصبح بعضها بالفعل ينفجر فى كثير من مرافقنا!

هل يَعْقل يا سيدى بعد المليارات التى نُصَرفها على التعليم ما زال ٤٠٪ من الشعب يُعانى الأمية.... هل هناك مُصيبة أفدح من تلك المصيبة..... الأمية فى العالم المتقدم هى أمية استخدام الحاسبات، وشبكات الإنترنت، ونحن ما زلنا فى مصر نحاول أن يَتَعَلّم الناس القراءة والكتابة..... العالم يقرأ ليتعلّم، وما زلنا نتعلّم لنستطيع القراءة!..... القراءة فقط!

- عندك حق.... هى مُشْكلة صعبَة.... بل هى وصمة، وعورة!

- سوف يكون حديثنا القادم عنها.... إنشاء الله.

- إنشاء الله.

(٧)

الأمية

مشكلة من قرن ونصف!!

مشكلة الأمية مشكلة كارثية يجب التَصَدّى لها بحزم، وإعطائها العناية اللازمة، وإيجاد الحلول المناسبة، واستنفار كل طاقات الدولة للقضاء عليها، فليس من المعقول بعد كل هذه السنوات أن يظل ثلث السكان يعيشون فى كهوف الأمية المظلمة!

obeikandl.com

- تريد أن تقول شيئًا اليوم..... لا أحسبه مُبْهجًا..... وجْهَك يَشى به.... أليس كذلك؟

- لهذه الدرجة يَظهر على وجهى؟

- نعم.... هذا شىء لا يخْفى..... أنا أعرفك جيدًا.

- عندك حَق.... قُلْت لى يومًا إنها ليست وزارة.... إنها مَغارة.... كلما مشيت فى دروبها ازداد الظلام، وازداد الإحساس بالتوهان!

- أرى زيارتك بالأمس كانت غير مُوَفقة.

- بل قل كانت مُفْزعة!

- قُلْ بسرعة.... ازداد فضولى!

- كنت فى زيارة لمدرسة المتفوقين الابتدائية ناحية القلعة.... طلبت من تلميذ فى الصف الخامس أن يقرأ شيئًا من كتاب القراءة، فلم يستطع، وأخذ يُتَهته، ويَتَلَعْثَم، قُلت فى نفسى ربما هى حالة خاصة لتلميذ واحد، فإذا بى أكتشف أنها حالة عامة..... أغلب الفصل لا يستطيع القراءة، أمرت بإجراء اختبار فى الإملاء فكانت النتيجة مأساة..... هل تُصَدّق ذلك؟

- بل أعرفه!

- تَعْرفه؟!

- نَعَم.... ماذا تنتظر فى مدرسة بها تسعون تلميذًا فى الفصل الواحد، وفى منطقة أغلب سكانها ليسوا من المتعلمين، بل لا يعرفون القراءة والكتابة، وهمومهم تَتَعَدّى ذلك بكثير!

- ولكن أين دور المدرسة، بل أين حصيلة المليارات التى تصرفها الوزارة على التعليم..... هذا إهدار للمال العام، إن الأمر يحتاج إلى المُساءلة.... يوجد إهمال بالقطع يحتاج إلى وقفة جادة، وحساب عسير.

- أراك فَكّرت فى شىء ما؟

- ليس بعد، ولكن بالقطع سأفعل، ولكن يَحضرنى سؤال طَرَحته فى حينه..... كيف نجح هؤلاء التلاميذ، وانتقلوا للصفوف الأعلى؟

- الإجابة سهلة، إذا ما عرفت نظام الامتحان، وأعمال السنة، وسهولة الغش والتزوير، وبيع الدرجات والنجاح، كل شيء له ثمن، بل تسعيرة مُحَددة، وكلما انتقلت من مرحلة إلى مرحلة أعلى، اختلفت الوسائل وتنوّعت، هل تعرف أن بعض المكتبات تقوم بعمل برشام جاهز يستخدمه التلاميذ فى الغش فى الامتحانات من الابتدائى إلى الثانوى.

- هذا شيء خطير.... معاول تهدم التعليم، وتُدَمّر كل الجهود.

- بعض خريجى الجامعة هذه الأيام لا يستطيعون كتابة مذكرة أو طلب بدون أخطاء إملائية، لقد رأيت ذلك بنفسى، وأيضًا نصف خريجى المدارس ينضمون إلى طابور الأمية كل عام!

- أذكر أننا اتفقنا أن نتحَدّث اليوم عن مُشْكلة محو الأمية..... إنها مُشْكلة تدعو إلى القلق.... بل الفزع.... بالرغم من جهود الحكومة فى التوسع فى التعليم الابتدائى، وانخفاض نسبة التسرب إلى أقل من نصف فى المائة، ومع ذلك فإن نسبة الأمية وصلت إلى ما يقرب من ٤٠٪، أى تقريبًا تعداد سكان مصر فى الستينيات!

- العبرة ليست بالكم، ولكن فى كفاءة النظام التعليمى.... ما يحدث يُعْتَبر هَدرًا فى الإنفاق على التعليم، والفشل فى مواجهة الصعوبات والمشاكل بالطرق العلمية الصحيحة، وإضاعة الوقت فى جهود غير مؤثرة، والتخطيط فى ظل تقارير مُنَمّقة، والبعد عن جهل أو عَمد عن الأسباب الحقيقية.

يكفى أن الدكتور نظيف رئيس الوزراء يَعْتَرف فى تقرير التنمية البشرية أنه يوجد ٢٠٪ من السكان يُصنّفون ضمن الفئات الفقيرة التى تُعانى من صعوبة الالتحاق بالمدارس لا سيما الإناث فى الأسر الفقيرة اللائى ترتفع نسبة عدم التحاقهن بالتعليم على نحو كبير بخاصة فى المناطق الريفية!

مشكلة الأمية مشكلة كارثية يجب التصدى لها بحزم، وإعطاءها العناية اللازمة، وإيجاد الحلول المناسبة، واستنفار كل طاقات الدولة للقضاء عليها، فليس من المعقول بعد كل هذه السنوات أن يظل ثلث السكان يعيشون فى كهوف الأمية المظلمة.

الأمية لها آثار خطيرة على الفرد والمجتمع.... اسمح لى أن أذكر بعضها للتذكرة، وتحريك مجاديف الحماس.

الأُمّية تُودى إلى نقص الوعى بمفهومه الشامل، ما يجعل الفرد جاهلاً بتكوين

وتوجيه حاجاته الإنسانية من حيث الحاجة للبقاء والنماء والمُشاركة والانتماء والكرامة والارتقاء.

لها آثار سلبية على إعداد المُواطنة، فالأمية تُعْنى عدم توافر الوسيلة المُناسبة لمتابعة مُتَطلّبات المواطنة بمفهومها الشامل، الأمر الذى لا يقتصر على الوعى السياسى والمُشاركة السياسية، بل يمتد إلى نواحى مُتَعَددة كالتنشئة السياسية، والمُشاركة السياسية، ومدى الشعور بالانتماء الوطنى والقومى، والمشاركة فى العمل والإنتاج.

أيضًا لها آثارها على نقص الإنتاج والدخل القومى والفردى، فقد أثبتت الدراسات أن العامل الذى تَلَقّى تعليمه سنة واحدة، يكسب طوال حياته بنسبة ١٥٪ عن زميله الأمّى!

كذلك لها آثارها على زيادة الهَدَر والفقد، ونسب الإصابات فى العمل والحياة!

لا يمكن إغفال آثار الأمية على الأمن القومى، فالأمى سهل الوقوع فريسة التعَصّب وتجنيده للمُشاركة فى أعمال هَدّامة تضر بأمن الوطن والمواطنين مما يُكلّف الدولة الكثير من الجهد والمال فى التَصَدّى لهؤلاء المُتَعَصّبين.

الأمية لها أيضًا تأثيراتها السلبية على شخصية الفرد من حيث القُدْرة على الإبداع، وحسن استثمار قدراته الذهنية بكل جوانبها، وعلى حُسن استثمار وقت الفراغ!

أما أخطر آثار الأمية فهى تأثيراتها السلبية على تربية الأولاد بسبب زيادة حجم الأسرة وقلّة مواردها.

فى لقاء تليفزيونى..... التقت المذيعة بأحد المواطنين البسطاء..... كان رجلاً فى حدود الأربعين، وعنده من الأبناء أحد عشر من الأولاد والبنات، وبالطبع عنده الفرصة لإنجاب المزيد، وعندما أبدت المذيعة دهشتها، وسألته لماذا أنجبت كل هذا العدد من الأبناء، قال ببساطة وعلى وجهه ابتسامة عريضة "علشان أغيظ الحكومة"

طبعًا مثل هذه الشخصية..... ضَحية للأُمية وانغلاق العقل وضيق الأفق.

الحقيقة أن من تنبه إلى وجود هذه المشكلة هو "على باشا مُبارك" فى منتصف القرن التاسع عشر، ودعا إلى محو أمية الضباط والجنود، يعنى بدأت الجهود من حوالى أكثر من قرن ونصف، ولكنها كانت جهود فردية، وبعض مؤسسات المجتمع المدنى لمواجهتها حتى صَدَر أول قانون لمحو الأمية رقم ١١٠ لسنة ١٩٤٤، والقانون رقم ٦٧ لسنة ١٩٧٠ ثم القانون ٨ لسنة ١٩٩١، والذى بموجبه نشأت الهيئة العامة لمحو الأمية

وتعليم الكبار، ورغم كل الجهود فما زالت المُشْكلة تُطل برأسها.... الناس تُحس بأنها أصبحت مشكلة مُسْتَعْصية، وأحيانًا تتردد بعض الأقاويل الخبيثة والموحية... هدفَها الهجوم على الحزب الوطنى.

- أقاويل..... مثل ماذا؟

- الدكتور يحى قزاز أستاذ الجيولوجيا بجامعة حلوان، وعضو حركة ٩ مارس، قال ردًّا على سؤال "لماذا يُجَرِّف الحزب الوطنى ورجاله التعليم والبحث العلمى؟.... فقال: "لأنهم يُؤمنون بأن قيادة أمة من الجهلاء تَضمن لهم البقاء على كراسيهم مدى الحياة!"

- هذا كلام غير حقيقى، ولا يسنده أى دليل..... مُجَرّد اتهامات جوفاء لا أساس لها، ولكنها مشكلة لا تكفى لحلّها جهود الحكومة فقط، بل جهود كل المنظمات المدنية، والجمعيات الأهلية، والمساجد والكنائس.

- واللّه لو أرادت الحكومة أن تقضى على هذه الآفة فى عام أو عامين لفعلت ونجحت أيضًا..... توجد تجارب ناجحة لكثير من الدول، نحن لسنا أقل من هذه الدول، ولكن دعنى أسألك سؤالاً..... هل سَمعت الاقتراح بإنشاء وزارة مُسْتَقلّة لمحو الأمية، ولها كادر خاص بها؟

- طبعًا سمعت به.... صاحبه أعرفه.... هو الدكتور أبو بكر الصدّيق أفضل عالم رياضيات فى العالم ٢٠١٠، والذى يُقال عنه إنّه موسوعة مُتَحَرّكَة، وله نظريات تُدَرّس بأكبر الجامعات.

- عظيم.... ما رأيك فى هذا الاقتراح؟

- أنا رأيى من رأى من عارضوه لأسباب كثيرة..... وأنا أُؤيد د. رأفت رضوان رئيس الهيئة العامّة لمَحْو الأمية وتعليم الكبار الذى قال إن الفكرة فى حَد ذاتها تُعَبّر عن نوايا طيبة، وأن قضية الأمية ليست فى التنظيم لأنها مَشروع وليست وزارة.

الحَل لا يَكْمن فى وجود وزارة بل الحَل يَكْمن فى وجود خطّة تُخَصص لها موارد مالية كافية لمحاربة الأمّيّة بالإضافة إلى وجود مؤشرات لقياس ما يتَحَقق فيها، ومتابعة تنفيذها، ولا بد من التأكيد المُسْتَمر على أن تُصبح قضية الأمية جزءًا من فكر المُجْتمع.

- ولكن هناك من الخبراء من يوافق على إنشاء هذه الوزارة مثل الدكتور عبد الله عَسْكَر، وهو خبير تربوى معروف مُعَلِلاً مَوْقفه بأن رأس التنمية فى أى عصر هو التعليم، ويَقْتَرح تسمية الوزارة المُقْتَرَحَة "وزارة مَحْو الأمية والتعليم المُسْتَمر" لأنه فى رأيه أن الأمية ليست فقط فى الأمية الأبجدية بل فى كافّة أشكال التعليم المُسْتَمر من ثقافة وتكنولوجيا وغيرها.

ويُعْطى سببًا آخر وهو أن الهيئة العامة لمحو الأمية ثَبَت فَشَلَها لعدم توافر إمكانات ماديّة لها، وميزانية مُخَصصة، وهيئة مُسْتَقلّة.

- على العموم كلّها آراء طَيّبَة تَدل على الاهتمام بالمُشكلة، ولكنك لم تذكر لى رأيك أنت.

- أنا أرى أنها مُشْكلة قابلة للحَل بشرط أن يتكلّم الخُبَراء ويتوارى الأوصياء ويرحمونا من وصايتهم!

- من يده فى الماء ليس كمن يده فى النار.

- أنا لا أتَكلّم من فراغ، ولكن من واقع تجارب بعض الدول التى استطاعت أن تتخلّص من هذا العار.

الدكتور حسنى أحمد السيد أحد الخُبَراء التربويين يستشهد بتجربة كوريا التى قَضَت على الأمية فى عام واحد فقط، ويُطالب بتجنيد كل خريجى الجامعات لمدة عام كما فَعَلت كوريا، وكذلك كندا التى أعْلَنَت منذ فترة قريبة القضاء التام على الأمية..... ليس أُمّية القراءة، بل أُمّيّة التعامل مع الكمبيوتر.

الدكتور حامد عَمّار أحد الخُبَراء التربويين له أيضًا مُقْتَرَحات من عدّة نقاط..... أوّلها تَفْعيل جهود المُجْتَمَع المدنى والجمعيات الأهلية التى يَصل عددها إلى ٢٠ ألف جمعية لمحو الأمية، ويتم اختيار ٥ آلاف جمعية من المُهْتَمين الجادّين بمَحْو الأمية، وعلى كل جمعية أن تُوَظّف فى العام الواحد مائة من الأميين فى المنطقة التى تقع فيها، وسوف نجد فى كل عام مائة مُتَعَلّم بدلاً من مائة أُمّى، وإذا اسْتَمَر هذا الوضع وطُبّقَ على كافّة الجمعيات سنجد لدينا كل عام نصف مليون مُتَعَلّم، وفى غُضون خَمَس سنوات نقضى على جُزْء كبير من الأمية.

وأنا لى أيضًا اقتراح قريب من الاقتراح السابق.

- أرجو أن يكون اقتراحًا قابلاً للتنفيذ.

- طبعًا.... فى الحقيقة..... المُشْكلة تحتاج إلى مواجهة شجاعة، وإجراءات حاسمة..... الأمية أصبحت خطرًا يُهَدد المُجتمع، بل وأصبحت من المشاكل التى تَعوق برامج الدولة للتنمية والإصلاح.

- والله أنا أعرف ذلك جيدًا..... ولكنك لم تَذكر اقتراحك بعد.

- اقتراحى يتمثل فى ربط مواجهة المُشكلة بالحاجة لدى الشخص الأُمّى.... مثل حاجته للعمل والوظيفة، أو الحصول على أرض بناء أو مسكن أو حتى استخراج بطاقة تموين أو القيام بالحج والعُمرَة أو الحصول على قرض، أو استخراج أى مُسْتَنَد، وكذلك السفر للخارج، وأشياء أُخرى من هذا القبيل.

- هذه المُقْتَرَحات يُمْكن أن تؤدى إلى ثورة.... من يستطيع أن يوقف هذه الخَدَمات؟!

- لن يكون ذلك فجأة.... سوف تكون هناك فترة كافية لعمل الدعاية اللازمة، والتوعية المُكَثّفة.... يُمكن أن تكون سنة أو أكثر.... ذلك حسب الظروف التى يراها الخُبراء، وفى هذه الفترة كما قُلْت يستطيع الإعلام أن يلعب دورًا مُهمًّا لحث الناس على الالتحاق بمراكز محو الأمية فى المدارس والجامعات، ومقار الجمعيات الخيرية والأهلية والمساجد والكنائس، ويتم إعلان مشروع القضاء على الأمية "مشروع قومى" ولكن يبقى شرط واحد أساسى.

- ما هو يا ترى؟

- الجدية..... وأخذ الأمر موضوع حياة أو موت، وتظل قُوة الدفع قويّة ومُسْتَمرّة..... فلا نتحَمّس كالعادة فى البداية، ثم يَقل الحماس تدريجيًّا حتى يصل إلى الصفر!

- عندك حق..... لكن لا تَنْسى أن الشعب المصرى عندما يجد نفْسَه فى موقف التَحَدّى يكون عند حُسن الظن به، وتظهر قدراته العالية والمذهلة..... المصريون هم الذين بنوا السد العالى... أعظم مشروع فى القرن العشرين، والمصريون هم الذين حققوا نصر أكتوبر العظيم، وأذهلوا العالم بأدائهم العالى.

- هذا حقيقى، ولكن هذا يحتاج أولاً إلى مجهوداتك لإقناع الحكومة، فهى فضلاً عن مسئوليتك المباشرة، فالحكومة هى الأساس وعندها الإمكانات، ونريد منها بسرعة أن تُطلق الشرارة، وتَحْمل الشُعلة للتخلص من هذا العار فى القرن الواحد والعشرين!

obeikandl.com

(٨)

التقويم الشامل.... لماذا؟

..... أولاً لا بد من نشر ثقافة المشروع.... أى التعريف به بين المُعَلّمين والمتعلّمين وأولياء الأمور، وعقد لقاءات مُشْتَرَكَة لدراسته، ومعرفة الهدف من تطبيقه، ومناقشة كل بنوده، وكيفية تطبيقه بالطريقة الصحيحة.

- ماذا وراءك اليوم؟

- ورائى الكثير، ولكنى أخشى أن أثير غضبك!

- غضبى؟!..... أبدًا..... أنا لا أغضب من النقد، ولكن بشرط أن يكون نقدًا بنّاءً، والكلام ليس فيه ما يُضيع الوقت مثلما يَحْدث الآن!

- أراك تُشير إلى موضوع مُعَيّن.

- هذا صحيح، ولكن الحقيقة أن هذا الموضوع بالذات يشغل بالى، ولكنى فى الحقيقة لم أستوعب أبعاده بعد..... أنا أحاول أن أدرسه بهدوء، وأعرف إيجابياته وسلبياته، ولكن الصحافة لا تتركنى فى حالى، وكأننى أنا المسئول عنه، وعن تطبيقه!

- لا تنسى أن وزارتك تتعامل مع كل بيت فى مصر..... فى القرية..... فى المدينة... فى الصحراء... فى كل مكان..... وأى قرار مهما كان صغيرًا يكون له صدى، ومن الطبيعى أن يكون له مؤيدون ومعارضون!

- هذا حقيقى، ولكن إصدار قرار جديد أو إلغاء قرار قديم يحتاج إلى الدراسة والتأنى.

- أنت تقول هذا، والوزارة تأتى بالعكس تمامًا!

- كيف ذلك؟ لو كان كلامك صحيحًا فاعطنى مثال.

- المثال واضح وضوح الشمس..... قرار تطبيق نظام "التقويم الشامل"..... إنه يثير الغضب فى البيوت، كما أنه يثير اعتراض الخبراء، والفاهمين، ولكن الوزارة تُصر على تطبيقه!

- وما ذنبى أنا؟..... إنه يُطَبّق حتى من قبل الوزير السابق!

- أعرف..... سامحه الله..... وزير الأطفال..... بصراحة..... هل تُريد الحق أم شيئًا آخر؟

- الحق طبعا، ولا شىء غير الحق.

- هذا النظام كارثة على التعليم!

- كارثة!... يا ساتر..... لاشك أنك تُبالغ.

- أبدًا..... هذه حقيقة نابعة من تجربة، وممارسة..... أجمل ما فى هذا النظام هو الكلام، ثم الكلام..... كلام كبير، ومعانى ضخمة وفخمة، ولكن الحقيقة أنه

أُكذوبة كبْرى، ومضيعة للوقت، ومضيعة للجهد، ودمار للبقية الباقية من التعليم!

- هذا كلام خطير يحتاج إلى بيان ودليل، ثم أننى علمت أنه حدثت بشأنه الدراسات والاجتماعات، وتمت تجربته فى بعض المدارس فى كل إدارة تعليمية على مُستَوى الجمهورية، وجاءت التقارير من كل الجهات تؤكد نجاحه، وأنه طوق النجاة للتعليم فى مصر، وبه سوف نقضى على السلبيات، وأن كل ما جاء بشأنه إيجابيات، لذلك فقد تقرر تعميمه فى كل المدارس، وأنه بتطبيق هذا النظام سوف نحظى بتعليم متميز يدفع بالوطن إلى الصفوف الأولى بين الأمم.

- قُلت لك إنه كلام فى كلام، وضحك على الذقون، وكُلّه تمام فى تمام، لم تكن التجارب التى أُجْريت هدفها الاختيار والتطبيق الأمين، ولكن لتكون حُجّة لتطبيقه لمن اتخذ القرار ويُصر عليه.... موضوع التجربة كان مَعْبَرًا فقط!..... ثم من الذى قام بتقييم التجربة، وعاش مراحل التنفيذ، ورأى بعينيه مشاكلها، وساهم بأى قدر فى حلّها.

- أكيد مديرى المدارس، والقيادات فى الإدارات، وكل من شارك فى التنفيذ.

- بداية تنفيذ القرار ٣٠٥ لسنة ٢٠٠٣..... كان القيام بتجربته على ٨٪ من مدارس الإدارات التعليمية..... وخاصّة المدارس الرسمية..... التقارير التى أعقبت التجربة من مديرى المدارس والموجهين والمدرسين فى الميدان وكلها تنتقد القرار وتعارضه وتندد به ضُرب بها عرض الحائط، ولم يستمع أحد من الأوصياء لأصوات الخبرة ورجال التجربة، بعدما أكّدوا أنه نظام فاشل، ولا يستحق العمل به لأسباب كثيرة أهمها كما بينوا حشو المناهج، وعدم إعداد المعلم والثقافة المجتمعية والكثافة العالية فى الفصول وأماكن الدراسة الغير مُناسبة، ويقول الأستاذ على عاشور وكيل إدارة التعليم الابتدائى بزفتى أن نظام التقويم الشامل لا يستفيد به التلميذ، وأن ولى الأمر يقوم بالتكليفات والأعمال بدلاً منه، ويدفع المُعَلّم إلى استغلال التلميذ، وأنه لا يصب فى مصلحة التلاميذ ويهبط مستواهم، ويُزيد من الأعباء المادية والنفسية على أولياء الأمور.

وأنا أرى من جانبى أنه كان يجب إعداد الحقل التعليمى لتنفيذ هذا القرار بالصورة السليمة ما دامت الوزارة مُصرة عليه.

كان من الضرورى أن يسبق ذلك تدريب مُكثّف، وتعريف بالنظام الجديد، حتى

يكون لهم القدرة على شرح النظام للمعلمين، وتكون لهم القدرة على الإجابات الصحيحة، والتنفيذ الصحيح، والمتابعة والتقييم، ويكون هناك تعاون واتصال بالقيادات الأعلى للوقوف على المشاكل التى تظهر وطريقة حلّها، ولا تكون هناك إجابتان لسؤال واحد وأحيانًا ثلاثة، وأن يُترك الأمر للاجتهادات، ثم يكون الحساب فى آخر العام، وعندما تُرْفَع التقارير للقيادات العليا تكون تقارير حقيقية، نابعة من تجارب حقيقية تبتغى المصلحة العامة.

- هذا هو المفروض، ولكنى أشعر من كلامك بالمرارة وخيبة الأمل!

- شعورك صحيح.

- لماذا؟... ولكن بصراحة أريد نقاطًا مُحَددة.

- سوف أذكر لك عدة نقاط يتضح منها سبب خيبة الأمل التى أصابتنى، وما زالت مرارتها فى حلقى!

أولاً وكما قُلت سابقًا أن يُدَرّب المسئولون المنوط بهم التنفيذ على كيفية تنفيذ القرار، وكيفية تطبيقه فى المدارس، حتى ينقلوا معارفهم، وخبراتهم للمستويات الأدنى فى التنفيذ.

- هذا صحيح.... أتفق معك.... ثم ماذا؟

- ثانيًا.... فوجئ مدير المدرسة، والمُعلمون بنظام جديد لا يعلمون عنه شيئًا، ولا كيفية تنفيذه، وكانت صدمتهم أكبر عندما وجدوا قيادات الإدارة تتخبط فى تفسيرات متناقضة، وليست عندهم إجابات واضحة، وأصبح الموضوع خاضع لاجتهادات شخصية، وازدياد هُوّة فقدان الثقة بين المدرسة والبيت، واقتصر الموضوع فى الأذهان على عمل أنشطة يُكلّف بها التلميذ مثل وسائل الإيضّاح واللوحات، وتسبب ذلك فى ازدياد السخط بين أولياء الأمور لأن ذلك سيكلّفهم أموالاً جديدة للصرف على الأنشطة، وكذلك فهم أولياء الأمور أن الوزارة تُعطى للمدرس أسلحة جديدة للضغط عليهم لإعطاء الدروس الخصوصية لأولادهم، فى نفس الوقت كان السخط بين المعلّمين كبيرًا لتحميلهم أعباء إدارية تستنفذ جهدًا كبيرًا منهم لا طائل منه ولا فائدة وذلك بكثرة السجلات، وتسجيل الدرجات، وتقييم الأنشطة وتسجيلها، وحفظ ما يُسمى بالحقائب التقويمية، وليس لديهم أصلاً أماكن لحفظ دفاتر التحضير ودفاتر الدرجات!

ثالثًا... لم يُمَهّد المسئولون للقرار، وذلك بطرحه للنقاش فى وسائل الإعلام المُختلفة، ويشترك فى النقاش المعلّمون وأولياء الأمور للتعريف به، ومعرفة كل جوانبه، وأن الهدف من القرار أصلاً هو تقييم التلميذ من الناحية العلمية والمهارية والوجدانية، والتعرف على قُدرات التلميذ، والأخذ بيده لتنميتها بالطرق العلمية السليمة للوصول إلى أقصى درجات الإبداع والعطاء ليستفيد التلميذ ويستفيد الوطن، وأن ذلك يتطلّب تعاونًا وثيقًا بين البيت والمدرسة.

- هذا فعلاً هو المقصود من تطبيق القرار، نظام تعليمى مُتَميز يدفع بالوطن إلى الصفوف الأولى بين الأمم.

- شتان ما بين الهدف، وبين ما يتم فى التنفيذ الواقعى!

- ماذا تقصد؟

- من الطبيعى لنجاح أى فكرة، أو نظام لا بد من توافر آليات التنفيذ، وإلا أصبح حبرًا على ورق لا قيمة له، وكلامًا فى كلام، وإهدارًا للوقت والطاقة، والنتيجة المؤكدة هى الفشل.... أليس كذلك؟

- بالتأكيد.... لا أحد يختلف على ذلك.

- ولكن الواقع شىء آخر تمامًا.... مثلاً لو تناولنا أهم عُنصر فى تطبيق النظام وهو المعلّم، نجده غير مُتَحَمّس للنظام، وغير قادر على تنفيذه، ودائم الشكوى والنقد له، ولا يرى منه إلا مُجرد عمل دفتَرى لا قيمة له، يُسجل فيها درجات وتقارير لا قيمة لها، وبالتالى فقد النظام الهدف من وجوده أصلاً!

- شىء مؤسف إذا كان الأمر بهذه الصورة!

- هى كذلك..... بل هى أكثر سوادًا مما أقول، ويبدو!

- وماذا كُنْت تَفْعَل لو أُسْند إليك أمر تنفيذ القرار، خاصة وأنا أعرف أن عندك خبرات فى هذا المجال؟

- هذا حقيقى..... أولاً لا بد من نشر ثقافة المشروع.... أى التعريف به بين المُعَلّمين والمتعلّمين وأولياء الأمور، وعقد لقاءات مُشْتَرَكَة لدراسته، ومعرفة الهدف من تطبيقه، ومناقشة كل بنوده، وكيفية تطبيقه بالطريقة الصحيحة.

أنا فَعَلْت ذلك عندما كُنت مديرًا..... كانت مدرستى إحدى المدارس التى أُختيرت

لتجربة النظام.... هى مدرسة نهضة مصر التجريبية بإدارة ٦ أكتوبر.... درست القرار دراسة جيدة، اقتنعت بأهدافه.... تأكدت من توافر آليات تنفيذه.... بدأت فى تعريف المعلمين بالقرار وتحميسهم له، ثم قُمت بإرسال مُلَخّص للقرار إلى أولياء الأمور فى عبارات واضحة ومُحَدّدة ليتَعَرّفوا عليه، واستقبلت الكثير منهم فى المدرسة، ودارت حوارات، ومناقشات حول أهميته، وكيفية تطبيقه بطريقة مثالية، واقتنع الكثيرون منهم بتطبيقه، وأن الهدف منه هو تحقيق عملية "التعلم النشط" الذى يُحَقق التفاعل بين المُعَلّم والمُتَعَلّم، ويزيد الترابط بين المدرسة والمنزل، وجَعْل المدرسة بيئة جاذبة للتلاميذ، والقُدرة على التشخيص الدائم لمُسْتَوى التلميذ، وعلاج جوانب الضعف عنده، وفى نفس الوقت دَعْم جوانب القوة عنده بما يُحَقق تَحَسّنًا مُسْتَمرًا للأداء..... كان عندى كل عناصر النجاح..... فكانت النتيجة مُذْهلة، ولكن هنا يَحضرنى سؤال..... هل هذا النظام يُمكن أن ينجح فى المدارس الأخرى.... أقصد فى كل المحافظات والبيئات المختلفة، بل وفى كل المناطق داخل المحافظة الواحدة؟

- لا أفهم ما تقصده من السؤال!

- أنا تحدثت إليك عن تجربتى الشخصية، وكانت فى مدرسة تجريبية، فى منطقة مُتَحَضّرة، وعدد تلاميذ الفصل لا يتجاوز الأربعين تلميذًا، وأغلب أولياء الأمور من المثقفين، ودورهم كان أساسيًا فى نجاح النظام، ولكن لا أتصور أن ينجح هذا النظام فى مناطق أغلب السكان من البسطاء الذين يُلْقون بالعبء كله على المدرسة، وكثافة الفصل ربما تصل إلى الثمانين تلميذًا فى الفصل أو أكثر، مع عدم إغفال أن نسبة الأمية تصل فى مصر إلى ٤٠٪ من السكان!

ثم يَحضرنى هنا أيضًا حُكم المحكمة الدستورية العُليا التى قَضَت بعدم دستورية قرار وزير التعليم رقم ٣٠٥ لسنة ٢٠٠٣ بتطبيق النظام الشامل المُستمر بالحلقة الابتدائية، واستندت فى حُكْمها إلى مُخالفته لمبدأ المساواة، وتكافؤ الفرص بين الطُلاّب، وعدم نشره فى الجريدة الرسمية.

وذكرت المحكمة أن التقويم الشامل لا يتناسب مع المناهج المُعَدّلة لكبر حجمها، ولا يقيس المستوى الحقيقى للطلاب، وأيضًا الكثافة العددية الموجودة بالفصول، وعدم توافر الوسائل التكنولوجية اللازمة التى تضمن تنفيذه بالشكل الصحيح.

ويؤكد د. صلاح الطحاوى المحامى وأستاذ القانون الدولى والمحامى بالنقض أنه لا

يجوز التعديل فى حكم المحكمة لأن المحكمة الدستورية العليا تَقلّع النص القانونى المُخالف من جذوره بعد أن تقضى بعدم دستوريته باعتبار أنه مُناهض للدستور.

نظام يُعارضه رجال التربية والتعليم الذين فى الميدان.... وأولياء الأمور.... والتلاميذ... والمحامين.... والمحكمة الدستورية العُليا، ومع ذلك تُصر الوزارة على تطبيقه، بل وتعميمه فى جميع مدارس الجمهورية، والوصول به إلى المرحلة الثانوية..... أليس ذلك غريبًا؟!

-.....

- لماذا لا ترد.... حسنا.... الصمت خير وأبلغ من الكلام.... أعرف أنها سياسة الأوصياء، وأعرف أنك لا تملك قرارًا، وليس لك من الأمر شىء، وأنك مجرد مُنَفّذ للسياسات التى تضعها السلطة التنفيذية والتى تُحدد لك ما يجب أن تفعله، ولكن الأمر جد خطير..... إنه كارثة على التعليم.

- سوف أتجاهل ما ذكرته.... ليس الأمر بهذه الصورة.... ما لا تعرفه بالتأكيد أننى طلبت على وجه السرعة تقريرًا عن الحُكم الذى ذكرته، مع تقرير شامل من كل المديريات فى كل المحافظات يتناول تقييم النظام.... إيجابياته وسلبياته، وسوف يكون لى موقف إيجابى بعد دراسة التقارير!

- هذا ما أتمناه، ولكن هل هناك أشياء أخرى لم تعرفها حول القرار بعد هذا الحوار!!

obeikandl.com

(٩)

نظام بلا أدوات....!

.... كيف يتحقق النجاح لنظام تعليمى لا تتوفر له وسائل النجاح؟!.... المفروض إعداد الأدوات اللازمة قبل الشروع فى التنفيذ..... أليس كذلك؟

obeikandl.com

- عيناك حمراوتان، ووجهك مُرْهَق..... يُمْكن أن نُؤجل حديثنا إلى الغد.

- لا... لا... أنا لم أنم تقريبًا الليلة الماضية..... كُنت أتعجل النهار حتى ألقاك!

- إلى هذه الدرجة؟

- نعم.... ما قُلْتُه عن نظام "التقويم الشامل" أثار قَلَقى، وأطار النوم من عينى!

- هل تريد الحقيقة؟

- نعم، وهل تظن أنى أريد غيرها..... ولكن دعنى أولاً أقول لك شيئًا..... لا بد من تناول موضوع تحديث التعليم بجدية، واعتباره مسألة حياة أو موت..... الارتقاء بالتعليم هو السبيل الوحيد للخروج من نفق التخلّف الذى نعيشه.

- كلام صحيح، واتجاه محمود، ولكن لو صَحّت النوايا، ولكنى لست متفائلاً!..... دائمًا نسمع مثل هذا الكلام من كل وزير جديد، ونكتشف بعد فترة أنه لا جديد!..... سوف تُعْقَد المؤتمرات، ويتكلّم الخبراء، وتُؤخذ التوصيات بتعديل المناهج، وإزالة الحشو من الكتب، وتخفيض الكثافة، ولا يأتى كالعادة ذكر المعلم بأى حال!

- أنت تحاول أن تُحْبِطنى..... أنا أريد التشجيع والمساعدة!

- يا سيدى... مشاكل التعليم واضحة وضوح الشمس، وكل واحد صغيرًا أو كبيرًا يعرفها، ولكن الموضوع أننا نُدمن الكلام، ولا شىء غير الكلام..... عشرات الأبحاث فى الأدراج، والخبراء الحقيقيون على الهامش، المريض على طاولة العمليات، ثم نتجاهل الجراح، ونبحث عن مهندس ليُجرى العملية، ثم نقول إننا جادون لإنقاذ المريض المسكين، لا بد أن يتوسّد الأمر أهله أولاً إذا أردنا الإصلاح..... لا تؤاخذنى فيما قُلْت، فلا أقصدك أنت بالذات، فإننى أرى مدى إخلاصك، وحُسْن نواياك، وأنك بالفعل مُخْتَلف!

- أنا والله جاد، وسوف أستعين بأهل العطاء والخبرة..... أريد أن أعمل شيئًا ملموسًا..... شيئًا له قيمة..... الأمر زاد عن حَدّه..... الفجوة اتسعت بيننا وبين الدول الأخرى!

- ليت الأوصياء علينا يكون لهم هذا الحماس، ولكن دعنى أولاً أُكمل الحديث من عند النقطة التى وقفنا عندها فى اللقاء السابق حتى لا يأخذنا الحديث وأنساها، وهى على العموم لا تبتعد كثيرًا عن حديثنا اليوم!

- صحيح.... قُل يا سيدى..... كُلّى آذان صاغية.

- كان حديثنا بالأمس عن الهدف من العمل بنظام التقويم الشامل، ويهدف هذا النظام إلى تقييم التلميذ من الناحية العلمية والمهارية والوجدانية، وأيضًا من أهدافه اكتشاف ورعاية الموهوبين.

- أعرف ذلك، وهو من أهداف نظام التقويم الشامل الأساسية.

- عظيم، ولكن اسمح لى أن أسأل سؤالاً.... من سيكتشف هؤلاء الموهوبين، ... هل يوجد فى مدارسنا مُعَلّمين أو خبراء لاكتشاف هؤلاء الموهوبين؟ أم هو كلام فقط؟..... كلام جميل وعبارات رنانة لا طائل من ورائها إلا الفشل.

هل تدرى أن العجز فى مدرسى الأنشطة.... فى التربية الفنية، والموسيقى، والتربية الرياضية يصل فى بعض الإدارات إلى ٨٠٪، وربما فى أماكن أخرى إلى ١٠٠٪..... إذا كان العنصر الأساسى فى تحقيق أهداف النظام غير موجود، فكيف ينجح النظام؟!

- لم أكن أتخيل هذه النسبة..... أنا أعرف أن هناك عجزًا فى هذه النوعية من المدرسين، فضلاً عن العجز الشديد فى أمناء المكتبة، ولكننا نبذل الجهد لسد هذا العجز.

- رجعنا إلى النقطة الهامة..... أو إلى السؤال الهام.... كيف يتحقق النجاح لنظام تعليمى لا تتوفر له وسائل النجاح؟!.... المفروض إعداد الأدوات اللازمة قبل الشروع فى التنفيذ..... أليس كذلك؟

سوف أقول لك ما يحدث فى المدارس..... وسوف تعرف أنه مُجَرد تطبيق شكلى، وسجلات ودرجات عشوائية..... أرى على وجهك الضيق.... إذا كنت لا تريد أن أسترسل فسوف أتوقف عن الكلام.

- لا... لا..... تكلم أريد أن أعرف عما يحدث فى الميدان، وليس ما يُكْتب فى التقارير.

- معرفة الداء هى الخطوة الأولى للعلاج.

- وأنا كما قُلت لك عندى الرغبة الأكيدة فى العلاج، حتى لو اضطررت لإلغاء نظام يثبت فشله، مهما كلّفنى الأمر، ومهما كانت التحديات.

- عظيم.... المدرسة تُجبر التلميذ على اختيار نشاط لا يحبه، وليس فى دائرة اهتمامه، ولا يناسب موهبته إن كان صاحب موهبة، والحُجّة جاهزة..... لا يتوافر فى المدرسة مُعَلّمين أنشطة تُغطى احتياجات التلاميذ الفعلية..... مثلاً لو أن تلميذًا

عنده موهبة فى الموسيقى، ولأنه لا يوجد معلم للتربية الموسيقية فى المدرسة، فعلى التلميذ أن يختار نشاط التربية الرياضية مثلاً، وحتى لو وُجد معلم التربية الرياضية فليس عنده وقت لأنه مُرتبط بحصص رسمية تستنفذ كل وقته وجهده، وليس عليه إلا أن يملأ دفتر الدرجات بدرجات وهمية يرصّها بدون أن يعرف أسماء التلاميذ، وبالتالى يفقد النظام مصداقيته، ويفرغ من مضمونه، ويُصبح نظام ورقى لا قيمة له، وموضع سخرية المعلّمين، وأولياء الأمور على السواء.

- ليس معنى وجود هذه السلبيات أن نلغى النظام، ونضيع الوقت فى البحث عن نظام آخر!

- هذا صحيح لو أننا نعالج السلبيات، ونوفر الإمكانات، وندعم الإيجابيات، وتعمل طبقًا لمجريات الواقع، وليس المفروض فقط، ونعيد دراسة النظام مرة أخرى، ونأخذ آراء الخبراء فى المواقع الفعلية للتطبيق، وسوف أعطيك مثالاً يُعْطى خير مثال لفوضى التطبيق، وأرجو أن يتسع صدرك لما أقول.

- تكلم بما تريد، وبدون تَحَفّظ، أنا أريد أن أقف على الحقيقة كاملة.

- هو سؤال سبق أن سألته مرارًا.... هل المكتبة المدرسية تُعتبر نشاطًا مدرسيًّا مثلها مثل الموسيقى أو التربية الرياضية؟

- بالطبع لا.... المكتبة لها رسالة واضحة ومحددة.

- هل تسمح أن تحدد لى هذه الرسالة... اعذرنى فى طلبى... هو ليس اختبار، ولكنه لزوم الحوار.

- لا عليك... المكتبة لها دور رئيسى لتشجيع القراءة والاطلاع، وتوفير الفرصة للبحث والتثقيف، وكذلك خدمة المناهج، وكذلك ترسيخ عادة القراءة، وحب الكتاب لدى التلاميذ، واكتشاف الموهوبين، والمبدعين من الطلاب وتنمية مواهبهم، وكذلك غرس المثل العليا والالتزام بالقيم والانتماء للوطن، والتعريف بكبار الكتاب، وقراءة إبداعاتهم للاستفادة والتواصل.

- المكتبة للأسف لم تعد كذلك.... إنها تحوّلت إلى فصل دراسى، وأمين المكتبة انشغل عن عمله الأصلى بالتدريس!

- تدريس!.... تدريس ماذا؟!

- ألا تعرف أن المكتبة لها منهج يُدرّس، وفيه امتحانات شفهية وتحريرية، ودفاتر للدرجات، وتحوّلت المكتبة إلى فصل دراسى، وانشغل أمين المكتبة عن عمله الأصلى.

- هذا شيء غير معقول..... معنى ذلك أن المكتبة فقدت دورها تمامًا.

- الحقيقة أنها فقدت دورها من أيام الوزير إياه.... طبيب الأطفال، فقد تفتق ذهنه عن فكرة تضرب المكتبات فى مقتل!

- ما هذه الفكرة التى تشير إليها؟

- أن تأخذ الوزارة ميزانيات المكتبات من المدارس، ثم تقوم هى بشراء الكتب بمعرفتها..... طبعًا كتب ما أنزل الله بها من سلطان.... كتب راكدة فى دور الطباعة والنشر.... كتب عناوينها غريبة، وموضوعاتها أغرب.... كتب لا تُشَجع على القراءة، ولا تناسب المراحل السنية للأطفال، ولا تخدم المناهج..... طبعًا تردد كلام كثير، وهمس وغمز ولمز، وترددت كلمات مصالح وإكراميات من شركات النشر، واتفاقيات مشبوهة! وبالتالى أصبحت المكتبات مخازن للكتب.... كُتُب لا قيمة لها!

زمان كان المعلّم يُحَدد الكُتب التى يستطيع بها أن يَخُدم المنهج، وتناسب مستوى تلاميذه، وتدفعهم للقراءة، ثم يطلب من أمين المكتبة أن يشتريها من ميزانية المكتبة فتتحقق الفائدة.

المكتبات الآن يا سيدى ليس بها كتب لكبار الكتاب والأعلام.... ليس بها كتب لطه حسين، ولا نجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، ويوسف السباعى، وتوفيق الحكيم، وأنيس منصور، وكامل الكيلانى، ويوسف إدريس، وغيرهم كثير..... المكتبات تحوّلت إلى فصول دراسية، يتكدس فى بعضها أكثر من ثمانين تلميذًا..... تخيل مثل هذا العدد فى أى مكتبة مهما كانت مساحتها..... هذا المنظر يتكرر طوال اليوم، وفى كل حصّة!

- إنك ترسم صورة غير معقولة!

- يُمْكن أن تراها بنفسك..... كَبْسَة مفاجئة لأى مدرسة... ثم زيارة للمكتبة، وسوف ترى أشياء أسوأ مما ذكَرْتها..... هذا يؤكد ما قُلْتُه من أن الإصلاح يحتاج إلى وقفة جادة، والحديث مع أهل الخبرة، وليس للتقارير المكتوبة، وخبراء المكاتب المُكَيّفة.

- كلامك صحيح، ولكن كفى الليلة، ولنا حديث فى الغد إن شاء الله.

- إن شاء الله.

obeikandl.com

(١٠)

العلم النافع

نحن نُريد علمًا ينفع..... علمًا تَحكمه قواعد أخلاقية وسلوكية، وأن تكون النظرة لحامله نَظرة عالية رفيعة، وأن يكون له التبجيل والاحترام.... علم يُضْفى على صاحبه هالات النور، وتَغْمره أينما وُجد عبارات الثناء والتمجيد، ولكن للأسف كيف ذلك ومدارسنا اليوم..... لا أخلاق ولا علم فيها، ومرتع خصب لكل الموبقات، وتُرْتَكَب فيها أبشع الجرائم الأخلاقية!

obeikandl.com

- أراك اليوم تُمْسك بقلم، وأمامك مُفَكِّرَة..... هل تنوى تسجيل حديثنا؟

- رأيت من الضرورى فعل ذلك..... المواضيع ازدادت، والمشاكل تشعّبت، ولا بد من تسجيلها..... هل تُذَكِّرُنى بموضوع اليوم؟

- على ما أذكر أنه "أسباب التخلّف فى التعليم" أو يُمْكن أن نُسَمّيه "الأسباب المُنْتجة لحالات التخلّف"

- أنا أعرف أنها أسباب كثيرة، كما أعرف أيضًا أنها ليست خافية على أحد..... لا أقصد الخبراء، ورجال الفكر، ولكن الرجل العادى يعْرفها!

- طيب..... ما دُمْنا نعرفها، فلماذا لا نبدأ على الفور فى الإصلاح؟

- المُشكلة هى من أين نبدأ؟... من المدرسة؟.. من المعلّم؟.. من تطوير المناهج وتجديدها؟.. من نُظم التعليم؟... من التخلّص من مركزية التعليم... من تحديد الأهداف؟... من.....

- المهم أن نبدأ.... نتحرّك.... ولكن لا بد أن تكون الحركة شاملة.... لا تقتصر على عُنْصُر دون الآخر حتى لا تختلط الأمور، وتفقد الجهود ثمارها، ولا بد من وجود تنسيق، وتناغم حتى تكون القفزة كبيرة نحو النجاح.

- أرجو توضيح ذلك لو سمحت.

- يَعْنى لو قُلْنا سنبدأ بتطوير المناهج..... هذا طبعًا شىء محمود، ولكننا لو أغفلنا المُعَلّم الذى سَيُدَرّس هذه المناهج، ولم نُطَوّر أداءه، ونُحَسّن مستواه المادى والعلمى فلن تتحقق الفائدة طبعًا، وهكذا باقى عناصر التطوير التى ذكرناها.

- لنتناول الحديث عن كُل عُنْصُر.

- ليس بعد..... أنا أفضل الحديث أولاً عن الهدف الرئيسى من عملية التعلّم..... أى الشخص المُتَعَلّم الذى يُعدّه المجتَمَع كأفضل استثمار لتحقيق تنمية المجتمع، والمشاركة بإيجابية فى حل مشاكله، والعمل على تقدمّه ورفعته، وكلما كان تَحْصيل المُتَعَلّم من العلم راقيًا، ومُدْركًا لما حَوله من خَصائص الحياة وأسرارها كُلّما ازدادت قُدْرَته على امتلاك أدوات الرُقى والتقدم.

- كلام جميل، ولكن كيف يتحقق ذلك؟

- أولاً.... أن نُخلّص المناهج من التكديس، والحشو والتقليد، وأن نُنمّى عند الطالب روح الإبداع، والكشف والملاحظة والتجربة والاكتشاف، ولن يتحقق ذلك إلا عندما نتخلّص من عملية التلقين والحفظ وشحن الذاكرة.

- فعلاً تحديث المناهج أصبح ضرورة مُلحّة..... معظم الخبراء يُطالبون بسرعة تحديث المناهج وتجديدها فى ظل زَخَم الثورة المعرفية، والتكنولوجيا الحديثة حتى أنه يُقال إن كل معرفة يمر عليها ٣ سنوات تُصبح مُتقادمة، ولكننا فى عالمنا العربى نُدرّس مناهج عفا عليها الزمن، بل إننا ما زلنا نُدرّس نظريات كَشَف العلم الحديث عَدَم صحّتها!

- ليس تحديث المناهج فقط، ولكن طريقة التعلّم..... كما أشرت قبلاً... يجب أن تتغيّر، طريقة الحفظ والتلقين والإصرار عليها تقف بالطفل عند مرحلة الطفولة مهما تَقدّم فى مراحل التعليم، ويظل دائمًا عقله فى أذنيه، ويظل معيار التميز بعيدًا عن الواقع المطلوب.

أليس الطالب المُتميّز أو المتفوّق فى زَعْمنا هو الطالب القادر على الحفظ، وتكديس المعلومات فى ذهنه، وهو الطالب الأخرس الأطرش الذى يَتقبّل كُل ما يُلْقى إليه دون أن يُناقشه أو يُفكّر فيه أو يَتحاور حوله أو حتى يقتنع به، ثم يَلْقى به على ورقة الإجابة، وينال الدرجات العُلْيا، وينال أيضًا الثناء.

- هذا هو المعيار المُتفَق عليه، أو هو المعيار الذى يُحقق العدالة!

- هو معيار غير دقيق بالمرة، إنه يُكرس عملية التعليم المُتخلّف، ويُزيد الفجوة الموجودة بيننا وبين التعليم فى الدول المُتقدّمة، ولا يُسهم بالقطع فى عملية التنمية التى ننشدها.

إننا فى حاجة عاجلة إلى تعليم يُنمّى القُدْرَة على التفكير، ويُنمّى القُدْرَة على الاستنباط، ويبنى الشخصية الاستقلالية ذات الفكر المُتحرر..... تعليم يُنمّى القدرة على الإبداع والنظرة الواعية لمشاكل المجتمع.... تعليم يَشْحذ الطاقة ويُحفّز العقل ويحترم التخصص، ويُقدّر الخبرة.

إننا فى حاجة إلى تعليم لا يهدف فقط إلى الحصول على ورقة ولَقَب ومنصب..... أى

نُريد تعليمًا نافعًا للأمة.

حول هذا المعنى يُحَدّثنا الأستاذ عمرو خالد عن أحد الطلبة اليابانيين كان فى منحة دراسية فى أمريكا لنيل درجة الدكتوراه، وفى أثناء أبحاثه ودراسته تَوَصّل إلى اختراع جديد..... قام على الفور بقطع دراسته وألغى المنحة واستعد للعودة إلى بلاده وسط دهشة الأمريكان، وعندما سألوه.... ألا تُريد أن تحصل على الدكتوراه؟

قال بثقة وفهم لقيمة العلم التى تَعَلّمَها فى بلاده..... أنا جئت هنا لأستطيع أن أخترع هذه الآلة..... وأنا استطعت فعلاً أن أخترعها..... فماذا تُعنينى الشهادة ولقب دكتور..... سوف أعود لبلادى وأخدمها وأُقَدّم لها اختراعى.

هذه ثقافة حصل عليها هذا الطالب فى بلاده.... تَعَلّمَها وآمن بها.

من الأشياء الغريبة التى تحدث أمام أعيننا، ولا يستنكرها المجتمع أننا نجد طبيبًا أعددناه دراسيًا وعلميًا لمهنته السامية، وصرفنا عليه الأموال، وعقدنا عليه الآمال، ثم فجأة يترك مهنته، ويتحوّل إلى خطيب فى مسجد أو داعية إسلامى دون تأهيل حقيقى، وذلك فى الواقع يُعْطى مثالاً سيئًا للاستهانة بالمعرفة الحقيقية والتخصص العلمى!

يقول الأستاذ عمرو خالد فى مشكلة الفهم الخاطئ للإسلام "تصور بعض الشباب أن الإسلام هو المُكوث فى المساجد، فما أن يلتزم حتى ينحدر مُسْتواه العلمى بعد أن كان مُتَفَوّقًا..... يُصْبح فاشلاً..... فَيُصبح أسوأ صورة للمسلم.

ما الذى يدفع شاب مُسْلم يَدْرس العلوم أو الطب إلى تركها والاهتمام بدراسة العلوم الشرعية.

هذا فهم قاصر لديننا..... يكفيك ما يُفيدك فى أداء المناسك أداءً صحيحًا، وبعد أن تنبغ فى مجالك..... أدرس العلوم الأخرى.

- للأسف... نجد كثيرًا من هذه النماذج فى مجتمعنا..... شخص يَهجر مهنته التى تَعَلّم من أجلها ليمارس مهنة أخرى!

- أنا أعرف طبيبًا هجر مهنة الطب واشتَغَل مدرّسًا فى الفيزياء فى إحدى المدارس الخاصّة من أجل زيادة دَخْله من الدروس الخصوصية.

على العموم أرى أننا ابتعدنا عن موضوع الحديث، وهو الحديث عن المُتَعَلّم.

- هل يوجد شىء آخر؟

- طبعًا... هذا الشيء خاص بالتربية أو بالتحديد الأخلاق.... أى لا بد للتعليم أن يُصاحبه تدعيم للأخلاق.

- أرجو مزيدًا من الإيضاح.

- العلم الذى لا تحميه القيم والمبادئ السامية يتحَوّل فى النهاية إلى ظلم وعدوان وإرهاب وإذلال للغير.

العلم بلا أخلاق تدمير للإنسان وللمجتَمَع....

لا بد للعلم والخُلُق الحَسَن أن يتلازما، لأنه لا نهضة حقيقية ودائمة لأمة عَرَفَت العلم، ولم تَعْرف الأخلاق!

العالم الكبير الدكتور أحمد زويل صاحب جائزة نوبل فى الكيمياء يحتفظ بخطاب أرسله له الزعيم جمال عبد الناصر فى عام ١٩٥٦.... وكان الدكتور زويل فى العاشرة من عمره وأرسل للزعيم خطابًا يتمنى له التوفيق..... كتب له الرئيس فى عبارة من عبارات الخطاب الرقيق ".....وأوصيكم بالمُثابرة وتحصيل العلم مُسَلّحين بالأخلاق الكريمة..... "

وصية عظيمة من قائد عظيم يعرف قيمة الأخلاق العُلْيا.... لأن العلم لا يكون نافعًا مهما كان قَدْره إلا إذا كان مُصاحبًا للأخلاق الكريمة.

والعلم النافع لصاحبه لا بد أن يكون مُنْطَلَقه وغايته الله تعالى، فلا نفع فى علم يُراد به الدنيا وحدها خالصة من دون الله تَعالى، ولننظر إلى ما فعلته أمريكا عندما مَلَكَت زمام العلم، وتفَوّقَت فيه، فاستخدمت العلم فى تصنيع القنبلة الذريّة، وضربت بها مدينتى ناجازاكى وهيروشيما..... هذا علم لا تحكمه الأخلاق ولا يحميه الضمير، وهو العلم الذى يستعيذ منه الرسول الكريم ﷺ، ومن يسير على هديه الكريم، فكان يقول فى دُعائه الشهير والذى أخرجه مُسْلم "اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع"

نحن نُريد علمًا ينفع..... علمًا تَحْكمه قواعد أخلاقية وسلوكية، وأن تكون النظرة لحامله نَظرة عالية رفيعة، وأن يكون له التبجيل والاحترام.... علمًا يُضْفى على صاحبه هالات النور، وتَغْمره أينما وُجد عبارات الثناء والتمجيد.

إن قيمة العُلماء العُليا عبّر عنها الخليفة هارون الرشيد عندما قام بصَب الماء بنفسه

على يد عالم ليغسلها بعد أن أكل على مائدته إجلالاً له وبما يَحْمله من علم.

ولكن للأسف كيف ذلك ومدارسنا اليوم..... لا أخلاق ولا علم فيها، ومرتع خصب لكل الموبقات، وتُرْتَكَب فيها أبشع الجرائم الأخلاقية!

- ليس لهذه الدرجة يا أخى.....

- بل ما أقوله هو أقل القليل، وإذا كنت لا تعرف ذلك فتلك مُصيبة!..... ألا تَسْمَع أو تقرأ عن اعتداءات التلاميذ على المدرسين باللفظ واليد، ورُؤية التلاميذ بعد بداية اليوم الدراسى بقليل يَقْفزون من على الأسوار، ويتَسَكّعون فى الشوارع، ويترازلون على خَلْق الله فى الشوارع!

أشار الشيخ محمد الغزالى إلى تأكيد هذا المعنى بقوله حسب ما شاهده يومًا فى أحد الشوارع وهو يرى بعض التلاميذ ينصرفون من المدرسة إلى منازلهم عقب انتهاء اليوم الدراسى فيقول:

"أرسلت بصرى وراء طلاب بعض المدارس وهم مُنصرفون إلى بيوتهم..... كان الصخب شديدًا، والتدافع ظاهرًا، والتصايح بالكلمات النابية مسموعًا!..... لم تكن بالشارع آثارة من علم أو دلالة على جد ورشد.

ولست أستنكر على الصبية فرح الانطلاق والأوبة إلى الأصل، ولست أجهل طبيعة المرح فى مُقْتَبَل العُمر وخفّة التكليف.

ولكنى لم أسترح للطيش البادئ والمزح السخيف والألفاظ الماجنة إذا كُنّا نريد إعداد جيل صاعد فالأمر يتطلّب سيرة وسريرة غير ما أرى.

ألم تسمع أن المخدرات بكل أنواعها تُباع فى المدارس، وأن الغش فى الامتحانات أصبح هو القاعدة، وليس الاستثناء، وهنا دعنى أسأل سؤالاً..... هل سمعت فى السنوات السابقة عن تلميذ نال عقابًا أو جزاءً من أى نوع، أو تم فصله من المدرسة، أو تم إلغاء امتحانه..... العيب ليس فى عدم وجود قوانين ولوائح، ولكن العيب فى التنفيذ عجزًا أو جبنًا أو يأسًا!

سأذكر لك من خبراتى شيئًا ربما ينفع، أو نخرج منه بشىء...

كنت مرة رئيسًا للجنة للشهادة الإعدادية....

فجأة.... خَبْط شديد على بوابة المدرسة مقر اللجنة.... هرولت لاستطلاع الأمر.... فتح

البواب الباب.... رأيت ولدين فى سن اليفاعة.... شَكلهما أقرب إلى المتسولّين، أو بائعى أنابيب البوتاجاز.... يرتديان ملابس رَثّة وعلى وجهيهما علامات البُؤس والشقاء، ومن عيونهما تنطلق نظرات مُتَحَدّية وقحة، ونطق أحدهما فى استخفاف "عايزين نمتحن يا بيه".... سألتهما "هل أنتم تلاميذ فى المدرسة؟"..... قال أحدهما "أيوه يا بيه.... بَسّ احنا ما بنحضرش المدرسة!".... سألتهما "هل كتبتما استمارات للتقدم للامتحان؟"..... كان الرد بعد ضحكة ساخرة "لا يا بيه!"

لم أشأ أن أتخذ قرارًا بشأنهما.... القرار المفروض والطبيعى، وهو طردهما، وغلق البوابة دونهما، ولكنى آثرت السلامة واتصلت بالمدير المسئول فى الإدارة، فجاء بسرعة البرق مع مُساعديه، وأخذ يُعد بنفسه مكان الامتحان للولدين، واستجلب بسرعة من الإدارة استمارات التقديم، وأخذ يرجوهما لإحضار الصور المطلوبة، بل أكاد أخجل أن أقول الحقيقة وهو طلب المدير أن نساعد هذين الولدين، فهما فى رأيه أولاد غلابة، وأكد كثيرًا أمام دهشتنا البالغة أن القانون لا يمنع الولدين من أداء الامتحان رغم أنهما غائبين عن المدرسة طوال العام!

من العجيب أن هذا المدير نفسه أحال مدير إحدى المدارس للتحقيق، وأنزل به العقاب الرادع لأنه أغفل عن كتابة إنذارات للتلاميذ الغائبين عن المدرسة!.... مُنتهى التهريج!!

المهم أن هذين الولدين كانا سبب إزعاج شديد فى اللجنة، وأخرج أحدهما مطواة من جيبه، طالبًا الغش بالعافية!... فليس فى رأسه ورأس زميله شىء يكتبانه!

أسألك يا سيدى.... أية قوانين هذه، وأى تعليم هذا؟

يعنى ببساطة أقول لو أن تلميذًا غاب طوال العام بدون عُذر، وبدون أى سبب، ثم يأتى آخر العام ليمتحن، ونسمح له، فما جدوى القوانين المنظمة للغياب، ولماذا نُرسل إنذارات للغياب أصلاً، ونُهدر الوقت والمال، ونحوّل الأمر إلى أضحوكة وسخرية!

قرأت ذات مرة أن إدارة فى محافظة الغربية قامت بتحويل أولياء أمور التلاميذ الغائبين إلى القضاء، وحُكم عليهم بالغرامة، بسبب إهدارهم للمال العام، وأن التعليم فى مرحلة التعليم الأساسى تعليم إجبارى، وعلى ولى الأمر ألا يمنع أولاده من الحضور إلى المدرسة، وإلا تَعَرّض للعقوبة، وكان لهذا الأمر تأثيره فى انخفاض نسبة الغياب فى هذه الإدارة.

أعجبتنى الفكرة، وقررت اللجوء إلى القانون كما حدث فى محافظة الغربية،

فأرسلت أسماء التلاميذ الغائبين مع مندوب من المدرسة إلى قسم الشرطة لاتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة.

تسَلّم ضابط الشرطة الأسماء وهو فى دهشة بالغة، ولاحت على وجهه ابتسامة ساخرة كما أخبرنى مندوب المدرسة، وعندما ذهب المندوب إلى القسم فى المرة التالية لتسليم أسماء أخرى، لم تكن ابتسامة حتى ولو كانت ساخرة، ولكن كان غضب عارم، وأقسم الضابط للمندوب أنه لو جاء مرة أخرى فسوف يَمدّه على رجله فى القسم!.... وكانت المرة الأخيرة أن نلجأ للقانون!!

ثم دعنى أسألك سؤالاً.... لو أن تلميذًا فى مدرسة ما اعتدى على مُعَلّم..... ماذا نفعل لهذا التلميذ؟.... قبل أن ترد أقول لك لا شىء!..... أقسى ما نفعله هو تحويله إلى الاخصائى الاجتماعى، أو التحويل إلى مكتب الخدمة الاجتماعية فى الإدارة، ولا شىء فى النهاية إلا مزيد من الأسى والقهر والضيق، والحسرة.

ولو قُلنا إن ذلك يُمكن حدوثه للأسف فى مرحلة التعليم الأساسى، فما رأيك أن أبشع من ذلك يُمْكن أن يَحُدث فى التعليم الثانوى، وسوف أحكى لك مثالاً واحدًا....

ذات مَرّة قام أحد وكلاء المدرسة فى مدرسة ثانوية مشهورة بردع تلميذة بالقول لوجود التلميذة فى مكان غير مسموح بوجودها فيه..... غضبت التلميذة وتشاجرت مع الوكيل، وفى النهاية بَصَقَت فى وجهه..... جريمة اهتَزّت لها المدرسة، وانعقد مجلس إدارة المدرسة، وقرر فصل التلميذة نهائيًا من المدرسة للجرم الشديد الذى فَعَلَته، ثم تم إرسال القرار للوزير لاعتماده، وبالفعل اعتمد الوزير القرار، ومعه عبارة "من كل مدارس مصر" وارتاحت إدارة المدرسة، واستعاد الوكيل كبرياءه فى المدرسة!

- هذا العقاب قليل على هذه التلميذة!

- ليته استمَر..... سرعان ما تَدَخّل الأوصياء فى الموضوع.... عضو مجلس الشعب، وفلان وفلان من ذوى الهيبة والمنصب المرموق، وقابلوا الوزير، ولأن الوزير ليس من رجال التربية، ولا يعرف بالقطع قدر المعلم، ودور الأخلاق، وإن كان يعرف فليس ذلك هامًا، بل هو يتعامل بمنطق السياسى الذى يتعامل بحذر وحيطة مع ذوى الهيبة والسلطان، ولا يأخذ خطوة ولو كانت قصيرة إلا برضاء الكبار، ويتَجَنّب إغضاب أى مسئول، ولو كان الحق معه! ولتذهب الأخلاق إلى الجحيم، والتعليم إلى الحضيض!

سرعان ما عَدّل الوزير الهمام قراره بشأن التلميذة المُعْتَدية، وغَيّر القرار الذى لم

يجف الحبر الذى كُتبَ به، وكان القرار مُضحكًا، وهزليًا، فقد أصدر قرارًا آخر بتحويل التلميذة إلى المنازل، والسماح لها بأداء الامتحان!.... أى كان قرارًا فى صالح التلميذة، ولم يأبه بالغضب العارم الذى اجتاح أوساط المُعلّمين!

هذا مثال واحد من آلاف أمثلة التسيب والفوضى.... أضف إلى ذلك التزويغ من المدارس فى ظل قانون غياب هزلى لا يُحقق الردع، ويسخر منه التلاميذ بالشهادات المرضية المُشْترا من أطباء التأمين الصحى!

تُعلّم التلاميذ التزوير والكذب، والوصول إلى الغايات بطرق غير مشروعة وبمساعدة من أولياء الأمور!..... أى تعليم هذا، وأية تربية هذه؟!

ناهيك عن العراك مع المدرسين، والتزويغ العلنى من المدرسة، وعدم إحضار الكتب المدرسية، وطبعًا لا توجد واجبات مدرسية، وازدياد التعليقات السخيفة فى الفصل، والتهكّم على المُدَرّسين، وعدم حضور طابور الصباح، والتسكّع فى الخارج حتّى ينتهى الطابور، ثم الدخول بعد ذلك إلى المدرسة فى تَحَد واستخفاف، وتعليقات لاذعة يصيب رذاذها إدارة المدرسة!

أنا فى الواقع لا ألوم هؤلاء التلاميذ، ولكنى ألوم المسئولين، والقيادات، لأنه لا حُجّة لهم فى تجاهل القانون.... القانون موجود، ووسائل الردع موجودة، والقانون فى المدارس الثانوية يُعطى الحق لمجلس الإدارة توقيع العقاب على التلاميذ المخالفين حتى الفَصْل!

ولكن الواقع أن كل مدير مَدْرَسة "يكبّر" دماغه، ويقول لك يا عم "يا عم بلاش وجع دماغ.... لو فَصلْت التلميذ ها يرجع بُكْره غَصْب عَنّى!"

أوضاع كهذه.... هل تُنتج تَعْليمًا نافعًا!

لا أقصد التعليم المنهجى، فإن التلميذ يَحْصل عليه من الدروس الخُصوصية، ولكنى أقصد "تعليم الأخلاق" أو التربية الحقيقية التى أشرنا إليها.

تلميذ لا يحترم مدرسته ولا مُدَرّسيه، ويتعلّم الكذب والغش والتزوير، ولا يحترم العلم ولا حامليه، ولا يحضر طابور الصباح ليُحيى العَلَم رمز الوطن، ولا يعرف قيمة العقاب، ويستهين بكل شىء..... ماذا ننتظر من مثل هذا التلميذ؟!

هل تتذكر أننى تمنيت أن تُسند إدارة المدارس إلى القوات المُسَلّحَة، ولو لفترة انتقالية ثلاث سنوات أو أربع، حتى يعود الانضباط، وتتأكد هيبة المدرسة من جديد،

ونسترجع شبابنا الضائع إلى حظيرة القانون واحترامه!

اسمح لى أن أتكلّم عن تجربة شخصية..... ربما تُؤكد ما أقوله من ضرورة تطبيق القانون، لأن الانضباط هو بداية الطريق لأى إصلاح، فلا تَعْليم بدون أخلاق، ولا أخلاق بدون انضباط!

التعليم المُنفصل عن التربية جهد ضائع، أو جهد تافه النتائج.

كُلّفت بالعمل فى مدرسة تجريبية كبيرة... فيها كل المراحل من الحضانة إلى الثانوى.

فى أول يوم من العام الدراسى حَضَرْت طابور الصباح..... نُظّرْت ناحية القسم الثانوى.... المفروض وجود تسعة فصول للقسم الثانوى..... كُل فصل به حوالى أربعون تلميذًا..... لم يحضر الطابور فى كل فصل أكثر من ثلاث أو أربع تلاميذ..... سألت ناظر المدرسة عن السبب، فقال ببساطة وعلى وجهه ابتسامة هادئة، وكأنه أمر واقع لا يُزْعجه "هكذا القسم الثانوى.. التلاميذ فى العادة لا يحضرون الطابور، ولكنهم يدخلون المدرسة بعد انتهاء الطابور!

كان أمرًا مُخْزيًا لا يُمْكن السكوت عليه!

الطابور الصباحى هو عنوان المدرسة..... الطابور فى حد ذاته ليس غاية، ولكنه إحدى وسائل التربية.... فيه نتعَلّم الانضباط والنظام، وحب الوطن، فيه نمارس بعض التمرينات الرياضية المفيدة، وفيه نحصل على معلومات قيمة من الإذاعة المدرسية، وفيه تظهر مواهب الخطابة والإلقاء، وفيه تتأكد فى النفوس معانى الوطنية والانتماء عند تحية العلم، والإنشاد الجماعى للنشيد الوطنى.

يُقال إن الطابور هو عنوان المدرسة، والدليل الحَى على جهد الإدارة.

فى اليوم التالى كان لى كلمة فى أرض الطابور للتأكيد على المعانى السابقة، وناشدت التلاميذ الكبار أن يكونوا قدوة لزملائهم الصغار، ولم يتحرك الطابور إلا بعد دخول كل التلاميذ إلى المدرسة ووقوفهم فى أرض الطابور، وضاعت حصتان فى ذلك، ولكن لا يهم..... المهم هو تأكيد النظام والإصرار عليه، ولكن لا جديد حدث!

بدأ الطابور فى اليوم التالى بنفس الشكل السابق..... وقوف التلاميذ خارج المدرسة وفى الحدائق المحيطة، ثم دخولهم بعد انتهاء الطابور!

قمت بزيارة للفصول، وتَحَدّثت مع التلاميذ فى هدوء لحَثّهم على حضور الطابور،

ولكن لا فائدة، ولا وسيلة للإقناع، ولكن نظرات بلهاء مُتَحَدّية، وكان ينقصهم فقط إخراج ألسنتهم لى!

قُلت فى نفسى فليكن التحدى، ولكن بالقانون!

أعلنت فى المدرسة أن الغياب عن الطابور هو غياب عن الحصة الأولى، وغياب حصة واحدة هو بمثابة غياب عن اليوم كلّه، ولذلك لن يتحرك أى تلميذ من أرض الطابور إلا بعد أخذ الغياب فى الطابور، وقلت بصراحة لكل المساعدين معى فى المدرسة "أنا لا أستطيع أن أعمل فى ظل الفوضى!"

هكذا أعلنت التحدى، ولا يُمْكن الرجوع فيما انتويت أن أفعله مهما كلّفنى ذلك من جهد!

بدأ التنفيذ وسط غيوم الشك، ولكن مع الإصرار اتضح أن الأمر حقيقى، وبدأت إدارة شئون الطلبة فى تسجيل الغياب، وفى أرض الطابور، وتأكد التلاميذ أن الموضوع جاد.

بدأت أعداد التلاميذ تزداد فى أرض الطابور، وبدأنا نرى الأولاد والبنات يُهَرْولون إلى أرض الطابور حتى لا يُسَجّلوا فى الغياب، ومع ذلك ظل عدد لا بأس به لا يهتم ولا يستجيب، بل يسخر من الآخرين..... الحقيقة أنا لا ألومهم، فهم قد اعتادوا على مخالفة القانون وتعليمات المدرسة، وترسخّت فى نفوسهم الاستهانة بأى تهديد مهما كان!

لكن الوضع معى كان مُختلف..... وجد التلاميذ أنفسهم فى مواجهة حقيقية مع القانون واللوائح والقرارات الوزارية، وأن الأمر ليس هزلاً، ولا جعجعة على الفاضى، ولكن إصرار على مجازاة المُخالف حتى ولو بالفصل النهائى!

بدأت الإنذارات تصل إلى المنازل بالبريد المسجّل، وفيها توضيح كامل لما يقوله القانون، وأن من يتجاوز نسبة الغياب المقررة لن يُفلت من العقاب الذى يُمكن أن يصل إلى الفصل النهائى، ولن يُعاد التلميذ المفصول إلى المدرسة!

بدأ القلق يصل إلى البيوت، وبدأت تتحرك، وتأكدت أن الأمر لا رجعة فيه، وأن كل شىء يتم فى ظل القانون، وأن المدرسة لا تهدف إلا لانضباط المدرسة، وصالح أبنائهم، فكانوا عوامل إيجابية لتأكيد النظام وهيبة المدرسة!

لم يَمر أسبوعان حتى كان منظر الطابور يبعث على الفرحة والسعادة..... حتى

للتلاميذ أنفسهم، وبدأوا يُشاركون فى الطابور بإيجابية، وأصبح بعضهم يشارك فى فقرات الإذاعة، بل وفى قيادة الطابور، فقد أحسوا بمتعة الانضباط!

أريد هنا أن أوضح من هذه التجربة أن المهم ليس فى وجود القانون أو اللوائح والقرارات الوزارية، ولكن المهم هو تفعيلها لصالح الانضباط وتحقيق الجدية..... المهم هو تفعيل الأدوات المتاحة للمدرسة لتأكيد النظام.

لم آت بمعجزة أو حل سحرى أو حل مُستَوْرَد، ولكن فَعّلْت قانون العقاب والثواب، والبعد عن السلبية والأنانية.

لو فعلنا ذلك لما كُنا فى حاجة إلى غلق أبواب المدارس، ولما استشرى أيضًا وباء الغش الفردى والجماعى، ولما سمعنا مؤخرًا عن فضائح تسريب الامتحانات، والقضية الشهيرة التى جَسّدت كل مصائب التعليم!

- هذه كانت مصيبة المصائب!

- بالفعل كانت كذلك..... حتى أن الكاتب الصحفى الشهير بالأهرام الأستاذ فهمى هويدى وصَفَها بأنها كانت أخطر من نكسة يونيو ٦٧، وقال ما معناه إن نكسة ٦٧ كانت كاشفة لفشل نظامنا السياسى، وقضية تسريب الامتحانات كانت نكسة كاشفة لفشل نظامنا التعليمى!

يقول الداعية الإسلامى الأستاذ عمرو خالد "إن من يَغش.... يَتَحَمّل إثم الأمة"

يا سيدى الوزير..... لماذا وصل بنا الحال إلى ذلك الدرك الأسفل؟!

- .....

- أراك لا تريد أن تتكلم..... لا بأس.... الإجابة واضحة!!

(١١)

الوزارة الضّحيّة.....!

لماذا لا يتولّى شئون وزارة التربية والتعليم أحد رجالها، ومنهم الآلاف حاصلين على درجة الدكتوراه؟.... هل رأيت مرة مُهَندسًا يَتَوَلّى وزارة الصحة، أو مُهَندسًا زراعيًّا يتولّى وزارة الصناعة؟ لماذا هذه الوزارة المنكوبة؟!

obeikandl.com

- تتردد مقولة..... إنك إذا لم تجد عملاً فاعمل مدرسًا..... بل يُقال إن سُقراط هو صاحبها..... هل سمعتها؟

- طبعًا.... هى فى الواقع مقولة خاطئة، وقعنا أسرى لها سنوات طويلة، ولكننا فى سبيل إصلاح هذا الخطأ، والوزارة تعمل جاهدة ليكون المُعلّم صاحب مهنة مثل الطبيب والمهندس والمحامى، ولن يُسْمَح بمزاولة هذه المهنة العظيمة إلا المتخصصون من خريجى كليات التربية، وشروط أخرى تضعها الوزارة للارتقاء بهذه المهنة السامية.

- هذا شىء يدعو للثناء، والتشجيع، ولكن الأمور ما زالت غامضة خاصة فى ظل ما يُسَمّى كادر المعلّمين.

- للأسف.... الناس تعتقد أن كادر المعلّمين هو موضوع مالى يهدف فقط إلى زيادة دخول المُعلّمين بزيادة المرتبات، ولكن كادر المعلّمين يهدف فى المقام الأول إلى جعل وظيفة التدريس مهنة تحتاج باستمرار إلى النهوض بها من حيث المواصفات والتدريب المستمر وربط الترقيات والحوافز المادية بمدى ما يصل إليه المعلّم من مستوى مهارى يجعل عطاءه مُتَمَيّزًا.

فى الماضى كانت الوزارة تستعين بخريجى الجامعات على اختلاف تخصصاتهم للعمل مُعلّمين، وينحصر أداء المُعلّم فى القيام بتدريس بعض المُقررات التى يظل يُرَددها فى كل حصّة وفى كل عام بالطريقة التقليدية العقيمة التى تعتمد على التلقين والحفظ، ويظل المعلّم يُمارس عمله بدون تأهيل أو إعداد أو تدريب، ولا مُتابعة جادة ولا تقييم لأدواته، ولا تطوير ولا تثقيف، وحتى عندما يصل إلى خبرة معقولة مع توالى السنين، تقوم الوزارة بالاستعانة به فى ظل نظام الترقيات ليعمل وكيلاً أو ناظرًا أو مُديرًا، فنخسر جهوده كَمُعَلّم فى مادته، ليحُوّل إلى الأعمال الإدارية لأخذ غياب المعلّمين، أو المكاتبات، أو فى شئون الطلبة، وغير ذلك من الأعمال التى لا تحتاج إلا لموظفين عاديين!

مثلاً معلم فى مادة اللغة العربية.... قضى فى تدريس المادة عشرين عامًا.... عنده بالقطع خبرات كبيرة فى مادته، وأصبح مع السنين مالكًا لناصية المادة.... خبيرًا فيها، ثم نتجاهل ذلك كلّه، ونُسند له عملاً بحكم الترقية ليتحَوّل إلى وكيل لشئون الطلبة مثلاً أو وكيل لشئون العاملين.

- هذا ما كان يتم بالفعل، بل إننى أعرف مُدَرِّسًا.... كان قديرًا فى تدريس مادة العلوم، وكان له اسم رَنّان، ثم وصل به الحال مع رغبته فى الترقيه إلى أن يكون مدير مدرسة، فكان مديرًا سيئًا وفاشلاً، فكانت الخسارة مضاعفة!

- كادر المُعَلّمين جاء ليُعالج هذه السلبيات، فلن يُسْمَح بمزاولة المهنة إلا للمُتَخَصصين من خريجى كليات التربية.

- ولكن يوجد الآلاف من المعَلّمين ليسوا من خريجى كليات التربية.... أنا أعرف أنهم حوالى ٧٠٪.

- فيه قرار بضرورة الحصول على دبلوم تربوى، مع العمل على وضع برامج للتدريب المسْتَمر، مع شرط الحصول أيضًا على شهادة I C D L فى الكمبيوتر حتى يستطيع المُعَلّم أن يكون مؤهلاً للتعامل مع أدوات العصر الحديثة.

- كل هذه جهود عظيمة.... سوف يكون لها أكبر الأثر فى النهوض بالتعليم، وسوف يكون لها دور كبير فى معالجة السلبيات الموجودة، ولكننا أغفلنا أشياء هامة.

- أرجو أن تذكرها.

- رفع مُستوى المُعَلّمين المادى، وكذلك العمل على تأكيد قيمته الاجتماعية، وتعظيم دوره، والعمل بإخلاص لمحو الصورة القاتمة التى خَلّفَتها وسائل الإعلام بمختلف أنواعها.

- هذا ما نصبوا إليه من تطبيق كادر المُعَلّمين الذى يهدف بالدرجة الأولى إلى الارتقاء بمستوى المُعَلّم المادى والاجتماعى والمهنى.

- المهنى والاجتماعى فهمناه... ولكن المادى غير مُناسب على الإطلاق.

- إنها خُطْوَة على الطريق!

- الموضوع لا يحتاج إلى خُطوة.... إنه يحتاج إلى قَفْزَة.

- أنا معك.... بل أتمناه، ولكن هذا ليس فى يدى، هذه أمور تتوقف على ما تسمح به ميزانية الدولة!

- ولماذا لا تظهر هذه الحجج عندما ننفق المليارات على مشروعات فاشلة، ولكن عندما نتحدث عن أخطر مشروع تحتاجه بلدنا نتحجج بالميزانية، وضيق ذات اليد!

- ماذا تقصد بأخطر مشروع؟

- ليس غير النهوض بالتعليم.... مشروع تطوير التعليم.... كفى تجاهلاً له وإهمالاً، واللجوء إلى مُسَكّنات لا تُؤدى إلا لمزيد من الأمراض والعلل!.... وفجوة التخلّف ازدادت اتساعًا بيننا وبين الدول المُتَقَدّمَة.... لا اتكلّم عن مصر فقط بل فى عالمنا العربى رغم ما نمتلكه من إمكانات مادية وبشرية وعلمية، والغريب أنه كلما ازداد عدد الجامعات والمعاهد العلمية كلما ازداد التَخَلّف، وازداد التراجع فى كل المجالات، حتى سقطنا فى هُوّة التخلّف الحضارى والعلاج واضح، والطريق موجود.... هل تريد أن تعرف ماذا ينقصنا لنبدأ؟

- لا بأس... فلأسمع.

- أن نتخَلّص من الأوصياء.

- الأوصياء!..... من هم؟

- الذين يحتَلّون مُختلف المواقع المرموقة بأساليب يُجيدونها، ولا هَمّ لهم إلا مصلَحَتهم، والاحتفاظ بكراسيهم، وتأكيد سلطانهم، ولا يهمهم حاضر الأمة ولا مستقبلها.... عندهم عداء وكراهية للخبراء والمُفَكّرين..... يُجيدون النفاق والتلفيق والتزوير، ولا يُرددون إلا كلمات "كل شىء تمام"، ولم نجن منهم إلا مزيدًا من التخَلّف، ومزيدًا من التراجع.

- هذا كلام خطير، وليس عليه دليل.

- سوف أسوق لك الدليل، ولكن لا تغضب منى، ولكنها الحقيقة التى تُطل برأسها.... أعذرنى!

- لا عليك.... تَكلّم.... أريد أن أسمع وأعرف إن كان هناك جديد!

- سوف ألقى سؤالاً بسيطًا يُرَدده كل الناس سرًا وعلانية، بل هو مادة خصبة للسخرية والأسى!

- إلى هذه الدرجة؟

- وأكثر!

- تَفَضّل..... اسأل.

- لماذا لا يتولّى شئون وزارة التربية والتعليم أحد رجالها، ومنهم الآلاف حاصلين على درجة الدكتوراه؟....

لماذا هذه الوزارة المنكوبة؟!

يقول الأستاذ حسن العيسوى الأمين العام لحركة "معلّمون بلا نقابة" فى هذا الشأن "يجب التأكيد على ضرورة تخصص وزير التربية والتعليم فلا يكون مُهَندسًا أو أستاذ قانون أو ضابطًا وغيرها من التخصصات التى لا تتعلّق بالعملية التعليمية، وأيضًا ضرورة أن تُدار الوزارة بشكل مؤسسى"

إن آخر وزير مُتَخصص تولّى وزارة التربية والتعليم كان الدكتور مصطفى كمال حلمى بعد نصر أكتوبر فى عام ١٩٧٤، وكان الوزير الوحيد المُؤهل تربويًّا للتعامل مع مشاكل التعليم المُزْمنة، ثم تولّى الوزارة بعد ذلك وزراء غير مُتَخصصين انحدروا بالوزارة والتعليم!

هل رأيت مرة مُهَندسًا يَتَوَلّى وزارة الصحة، أو مُهَندسًا زراعيًّا يتولّى وزارة الصناعة؟

- إنك تُشير إلى!

- لا اقصدك والله، ولكنه سؤال يُرَدده الناس، ومنه يتعجّبون، ولكنى أردت أن أُثبت لك ما يفعله بنا الأوصياء، أنت لك قيمتك الكُبْرى، ولكن فى مجالك وتخَصصك، ولكن اسمح لى أن أسأل ما هى مؤهلاتك حتى تتولّى وزارة التربية والتعليم، وأنت لست خبيرًا فى التربية ولا التعليم..... أنت كمن جاءوا بمهندس ميكانيكا ليُجرى عملية جراحية لمريض!

أنا أعرف أنك مهندس كبير مُتَخَصص فى الحاسبات والتحكم الآلى، وحاصل على الماجستير والدكتوراه فى نفس المجال، ولك خبرة أكاديمية لأكثر من ثلاثين عامًا كأستاذ جامعة فى مصر والخارج، وخبير فى نُظُم الحاسبات والمعلومات..... ولكن ما علاقة كل هذه الخبرات العظيمة والمكانة الرفيعة فى مجالك بالعمل وزيرًا للتربية والتعليم؟!

هذا الأمر حَذّرنا منه الرسول الكريم ﷺ، فى حديث صحيح معناه "من يُوَسّد شخصًا لعمل، ويعلم أن هناك من هو خير منه لأداء هذا العمل.... لا يَشُم ريح الجنة"

هذا تأكيد من الرسول الكريم الذى لا ينطق عن الهوى عن تأكيد قيمة

التخصص، وأن من يُسْند له عمل لا بد أن يكون صالحًا له، مالكًا لإمكاناته وصلاحياته حتى يفيد المجتمع، وتصلح به الأمة.

لا يغيب عن أذهان الناس ما حَدَث للتعليم من نكسات عندما تَوَلى وزارة التربية والتعليم أحد أطباء الأطفال..... ربما اختاره الأوصياء لأن التلاميذ أطفال!... وكُلّه أطفال.... ما علاقة هذا الطبيب بالتربية والتعليم، وما هى مؤهلاته، والعجيب أنه ظل فى الوزارة أكثر من اثنى عشرة سنة نجح خلالها نجاحًا باهرًا فى إفساد التعليم والتربية، وفى إفساد العلاقة بين المُعَلّم والتلميذ، وولى الأمر والمُعَلّم، والتلميذ والمدرسة، وكَرّس العداء والكراهية بين كل عناصر منظومة التعليم، وجعل من المدرسين مافيا وأعداء، ومن المدرسة مكانًا للفوضى والتسيب والغش والتزوير والكذب، ووجدنا فى عهده السعيد المُعَلّمين يركبون سيارات الشرطة مقبوضًا عليهم بتهم واهية، وأسبغ على المُعَلّمين صفات مُخزية أهْوَنها أنهم مافيا، وكان يتفنن فى اتباع الوسائل لإذلال المُعَلّمين والتنكيل بهم!

هذا الوزير الذى استمَر ١٣ عامًا فى منصبه اخْتَرَع نظام العامين فى الثانوية العامة لتنتشر الدروس الخصوصية بدرجة غير مسبوقة، وانتشرت ظاهرة مراكز الدروس الخصوصية لأول مرة فى تاريخ مصر، وظهرت فى عهده التعيس المجاميع الخُرافية، بل وأصبح مجموع ١٠٥٪ نُكتة يُرددها الناس، ويسخر منها الغُرباء، واخترع الوزير نظام تحسين المجموع الذى كان يُتيح للطالب أن يدخل الامتحان فى المادّة الواحدة خمس مرّات، وتَفَشّت ظاهرة المُتَفَوّقين الجَهَلَة..... ومن العجيب أن هؤلاء المتفوقين الجهلة كانوا يرسبون فى السنة الأولى فى كليات القمّة، وبعضهم ترك الكلية بعد فَصْله لرسوبه مرتين متتاليتين..... وفى عهدك أنت....

- أنا؟

- لا تؤاخذنى... اتفقنا على الصراحة.... لقد رأيناك على شاشة التليفزيون، وحولك رجالك، ومن ورائك الصحفيون والمصورون، وكاميرات القنوات الفضائية، كان شيئًا أشبه بالكبسة، فبدلاً من أن تدخل المدرسة من بابها الرئيسى تسلّلت ورجالك عبر الباب الخلفى لتتمَكّن من ضبط التلاميذ والمدرسين والمدير مُتَلَبّسين فأثرت الرعب والخوف، وأمسكت بالأعداء المدرسين، وشرّدتهم بعيدًا عن المدرسة، ومنهم المظلوم والمريض، ومن لا يقدر على أجرة السفر للمكان الجديد، ووصفت

المدرسة... مكان العلم بالمذبلة، ولم تر عيناك إلا السلبيات، وكان الأجدر بك كوزير أن تسأل أولاً عن الأسباب التى أوصلت المدرسة المنكوبة إلى هذا الحال..... ربما عرفت شيئًا أو أشياء تكتشف منها أنك المسئول، وليس للمدير المسكين والمعلمين أى ذنب فيما رأيته من سوء الحال.

ثم دعنى أتساءل أين لجان المتابعة التى تُرسلها الوزارة والمديرية والإدارة.... كان يجب أن تطلب التقارير التى كتبوها عن المدرسة عند زيارتها، وسوف ترى العجب العجاب.... مكتوب كل شىء تمام، والمدرسة عال العال، ثم أين مدير المديرية، والمدير العام، وطابور المديرين من كل نوع، ومن مختلف المسميات..... كان يجب أن تسألهم، وتحاكمهم، بل وتوجه لهم اللوم والعقاب، ولكنك لم تختلف عما سبقوك، كل مصيبة يتحمّلها المُعَلّم الغلبان.... عاقبت الصغير وتركت الكبير، وفى نفس الوقت حققت "الشو الإعلامى" وصَفّق لك الجهلة، وأشاد بك الغافلون، وكتب صحفى يُقال عنه كبير "إنك الشخص الذى نريده للوزارة، وأشاد بك وبالكبسة، وقال عنها إننا بمثلها سوف نرقى، ونخلّص التعليم من مشاكله وأمراضه المزمنة" وياله من هوان وضحك على الذقون.

إذا ظلّ هذا موقفنا المُهين من المُعَلّم فلا تَقَدم، ولا خير ولا إصلاح.

المُعَلّم يا سيدى هو محور التقدم، وأداة الرقى والفلاح، ويجب أن نبذل كل ما فى وسْعنا لنرفعه إلى أعلى قمّة فى المجتمع، ونُلبسه رداء المهابة والوقار، ونعطيه بسخاء لتوفر له العيش الكريم.

يجب أن نُرَسّخ مفهوم أن التعليم هو مهنة الأنبياء..... خلَعَها سيد الخلق أجمعين على نفسه، فقال فى حديث أخرجه ابن ماجة "إنما بُعثت مُعَلّمًا".... ويكفى ذلك شرفًا وعزًا لكل مُعَلّم.

- على العموم وصلت الرسالة، ولكن أرجوك لا تذكر لى شيئًا بعد الآن عن هذه الزيارة، فقد عانيت منها الكثير، وتَعَرّضت بسببها للهجوم والمتاعب.

- لا عليك.... الحياة تجارب، وكل يوم نتعلّم ونستفيد!

obeikandl.com

(١٢)

جهاز سيّء السُّمْعَة.....!!

لم تستمع اللجنة لدفاع المدير المسكين، ولم تحاول أن تعرف الحقيقة..... كان دليل الاتهام واضحًا ومكتوبًا على الحائط، ولم تر اللجنة أو تلاحظ أن كل البنات فى المدرسة يلبسْن الإيشاربات مسلمات ومسيحيات، ولا توجد فتاة واحدة عارية الرأس.

obeikandl.com

- أتيت اليوم مُتأخرًا..... ليست هذه عادتك.

- آسف جدًا..... عَطّلنى صديق لقيته بالصُدفة فى ميدان الجيزة..... هو مُدير لإحدى المدارس الصناعية فى إحدى قرى الجيزة، وقد أوحى لى لقاءه بموضوع الحديث اليوم.

- لا بد أن وراءه حكاية مثيرة.

- حكاية مُضْحكة جدًا..... مليئة بالسخرية، ومُعَبّرَة عن الأداء المُخْزى لما يُسَمّى بلجان المُتابَعَة.

- لجان المُتابَعَة..... كيف ذلك؟!..... المعروف أن المُتابعَة لها دور رئيسى للوقوف على الأداء فى المدارس، والتأكد من بعض الشكاوى التى تصل إلى الإدارات أو الوزارة، أو مُتابعة ما يُنْشَر فى الصُحُف بشأن بعض المدارس.

- هذا شىء طبيعى ومعروف، ولكن الواقع يقول غير ذلك!

- لا بد أنه يوجد شىء هام تُريد أن تقوله.

- قبل أن أتكلّم أريد أن أُشير إلى كيفية تشكيل أجهزة المتابعة فى الإدارات.

- المفروض أن يَضُم هذا الجهاز أفراد على مُسْتَوى عال، عندهم الخبرة والشخصية والكفاءة.

- هذا هو المفروض، ولكن الواقع يُؤكد غير ذلك..... جهاز المُتابعة يُسَمّونه بجهاز الفاشلين، والمغضوب عليهم، والمُتَسَيبين، والمُسْتَبعدين، وأصحاب الجزاءات، والمُراد ركنهم على الرَف حتى حين، وأيضًا المُقَرّبون للمديرين ليتَسَنّى لهم الخروج من الإدارة لأداء أعمالهم الخاصة.

قال لى مرة مُعَلّم فى شَأن أحد المُتابعين..... كيف يأتى هذا الفُلان لمتابعة المدرسة، وهو الذى كان يملؤها فسادًا وهو مُدير لها!..... لم يَتْرُك مُخالفة إلا وفَعَلَها!

إنه الآن يَدخل المدرَسَة وقد نسى نَفْسَه وماضيه، ويُتابع أعمال المدرسة وسط نظرات السخرية والاستهزاء من العاملين بالمدرسة الذين يعرفونه، ويتندّرون عليه!

ومتابع آخر يَدْخُل المدرسة الساعة العاشرة، ويُغادرها الساعة العاشرة والنصف بعد كتابة تقرير روتينى فى بضْع كلمات مُتَكَررة ومحفوظة مثل "العمل على ما يُرام،

والطابور مُنتظم (هو لم يَحْضر الطابور أصلاً) وجميع المُدَرّسين فى فصولهم، ودورات المياه نظيفة، وحوش المدرسة نظيف، وكل القرارات الوزارية معمول بها، والمكتبة مفتوحة، وكل شىء تمام، ولا يوجد أحسن مما كان"

وقبل ذلك يتناول الإفطار، ويشرب الشاى، ثم يُغادر المدرسة فى أمان الله ولم يمكث بها أكثر من ساعة، ويُهَرْوِل للجلوس على المقهى، أو لأداء بعض أعماله الخاصة، أو الجلوس فى دُكّانه!

أرى الدهشة على وجهك، ويبدو أنك لا تُصَدّقنى، ولكن الموضوع لا يحتاج إلا إلى كبسة من كبساتك، وتطلب سجل المتابعين، ولن تجد غير ما قُلْتُه لك!

- سوف أفعل ذلك بالتأكيد.... هذا موضوع يَحْتاج إلى وَقْفَة.

- أرجو ذلك، ولكن ما زال هناك كلام آخر، وإن كان سيضايقك بالتأكيد!

- لا عليك..... تَكلّم.

- بعض المتابعين يأتون من الإدارة أو من وكالة الوزارة فيأمر لهم المدير الفاهم بإحضار الإفطار..... يوجد أحد مُساعدى المدير يتَحَرّك بغمزة العين، فيُهرول لإحضار الفول والطعمية والجبن والبيض، ثم بعد ذلك يأتى الساخن والساقع، فتمتلئ البطن وتستحى العين، ويُصاب الجسم بالخمول، فلا يتحَرّك المُتابع ولا يُتابع، ثم يكتب التقرير وهو يَتَجَشّأ، ويكتب كُلّه تمام، وليس فى الإمكان أبدع مما كان!

- هذا كلام خطير، بل هو مُهين!

- أكيد..... بل هذا لا يُنفى أن هناك مُتابعين تنطبق عليهم الصفات الحميدة والمطلوبة التى أشرت إليها من قبل، واتفقنا عليها.... منها المظهر المُحْتَرَم، والخبرة العميقة، والفهم الكامل لكُل جوانب العمل فى المدرسة، وكذلك المعرفة الكاملة بكل القرارات المُنَظّمَة للعمل، وامتلاك النظرة الثاقبة لفهم من يتعامل مَعَهم، والقُدْرَة على فهم ما أحرزته المدرسة من تَقَدّم فى عَهد الإدارة التى يُتابعها، فيأتى المُتابع إلى المدرسة قبل الجميع، وينصرف أيضًا من المدرسة مع الجميع، ويستمع إلى الإدارة والمدرسين، ويستمع إلى ما يُقابلهم من مشاكل وصعوبات، ويُساعدهم على حلّها بقدر المُستَطاع بما يمتلكه من نفوذ وفكر وخبرة، وإذا وجد

إيجابيات أشاد بها، وإذا رأى سلبيات أشار إليها فى رفق ولين، ويطلب حَلّها بعد أن يتدخّل بفكره، واقتراح الحلول.

لا أنسى ذات مَرّة، وأنا مُدير لإحدى المدارس..... جاءنى مُتابع من وكالة الوزارة..... كان رجلاً له طَلْعَة بَهية، وشخصية قَوية.... تَسْبقه ابتسامة.... يَتَحَدّث برقّة وهدوء ووقار.

كانت هذه المدرسة من المدارس سيئة السُمْعَة، وعندما تَوَلّيت مسئوليتها بَذَلت فيها جهودًا جبارة، وأزلت منها كثيرًا من السلبيات، ولكن ما زال بها أيضًا كثير من السلبيات..... قال لى المُتابع وقتها "أنا زُرْت هذه المدرسة فى نهاية العام السابق، وأنا اليوم أراها فى ثوب جديد تمامًا، وكأنها ليست هى.... شُكرًا على هذا الجهد الرائع..... صحيح أنه ما زالت هناك بعض السلبيات، ولكنى واثق أنها سوف تزول حالاً، والجهد الذى فَعَلْتَه يستحق الثناء والتقدير"

كلمات بسيطة من مُتابع رائع يَعرف رسالته جيدًا، ويعرف كيف يشحذ الهمم، ويشحن بطاريات الحماس، ويدفع إلى بذل مزيد من الجهد.

ولكن الأجمل فى الموضوع حدث بعد حوالى عشرة أيام من الزيارة..... حيث عاد المتابع مرة أخرى، وفى يده شهادة تقدير لى من الأستاذ وكيل الوزارة، وأصر على تقديمها لى فى طابور الفسحة مع كلمات طيبة فيها إشادة وتقدير.

- هذا نموذج رائع للمتابع أتمنى أن يسود فى أوساط المتابعين، وأنا أعدك أن أنظر فى هذا الأمر من جديد، وأن يكون للمتابعة شأن آخر إن شاء الله، ولكنى الاحظ أنك فى سبيل كلام آخر.

- صحيح.... أنت تلاحظ أننى لم أتكلّم عن جهاز المتابعة فى الوزارة، أو جهاز المُتابعة الخاص بمكتبك بالوزارة.

- هل عندك كلام بشأنهم؟

- سوف أُلَخّص كلامى فى حكاية.

- تَفَضّل قُل ما تُريد، ولكن أرجو أن تَخْتَصر فقد بدأت أُحس بالتعب، وعندى الليلة اجتماع فى الوزارة.

- لك ما تُريد..... فى يوم دخلت صَحَفيّة مُبتدئة إحدى المدارس الصناعية فى قرية من قرى الجيزة..... قرية هادئة آمنة.... فيها يعيش المسلمون والمسيحيون فى وئام وحب

وسلام..... لو قابلت فتاة فى الشارع لا تعرف إن كانت مُسْلمة أو مسيحية.... ملامحهم واحدة، وملابسهم واحدة.

تَجَوّلت الصّحَفيّة بعينيها على جُدْران المدرسة، وقفت أمام إعلان كبير عن الزى المدرسى الواجب ارتداءه، دق قلبها بعنف.... ها هو الخبر القُنبلة الذى سيهز الدنيا، ويجعل اسمها يتردد فى كل وسائل الإعلام..... ليس مُهمًّا أن تتحرّى الدقة، وتسعى إلى الحقيقة..... المهم هو الخبر الذى ستنقله إلى صحيفتها، فقد رأت فى السطر الأخير للإعلان "الإيشارب الذى يُغطى الرأس لا بد أن يكون لونه أبيض"

لَمَعَت عينا الصحَفية، وانفرَجَت أساريرها، وقفز شيطان خيالها، وكَتَبَت على قمّة الموضوع فى صَحيفتها بالبنط العريض "مدير مدرسة..... يُجْبر البنات المسيحيات على ارتداء الحجاب!"

طار الخبر إلى الوزارة.... هاجت الدنيا، وارتعد الوزير، وتهيأت له آثار الفتنة القادمة، وشعر بكرسى الوزارة يهتز بعنف من تحته.

لا بد أن يتحرّك بسرعة..... أرسل رجال المتابعة التابعين لمكتبه لتحَرّى الحقيقة، ولم ينس أن يزَوّدهم بالسكاكين المسنونة ليقطعوا رأس المدير الذى سيخرب بيته، لا تَهم الحقيقة.... المهم هو العقاب البتار الذى ستتناوله الصحف، وكيف أن الوزير اهتم بالموضوع الخطير، وعمل الجهود لوأد نار الفتنة.

لم تستمع اللجنة لدفاع المدير المسكين، ولم تحاول أن تعرف الحقيقة..... كان دليل الاتهام واضحًا ومكتوبًا على الحائط، ولم تر اللجنة أو تلاحظ أن كل البنات فى المدرسة يلبسن الإيشاربات مسلمات ومسيحيات، ولا توجد فتاة واحدة عارية الرأس!

كان العقاب شديدًا حتى يكون له دَوى هائل..... نقل المدير من المدرسة، وخصم أيام من راتبه، ولم يشفع للمدير أنه حاصل على جوائز عديدة لمدرسته، وأنه من أكفأ المديرين فى الإدارة، وله سُمْعة طيبة، ومحبوب من كل سكان القرية، والقرى المجاورة، فكانت الصدمة عنيفة عليه، ولكن صرخاته ضاعت، ولم تجد لها مُجيب!

ربما يومها كان الوزير صائم، وصلّى لله الصلوات الخمس، ونام فى سريره هادئ البال، ولكن الله لا ينام، فقد استطاع بعض المُحبين للمدير أن يذهبوا به إلى قناة دريم الفضائية.... برنامج العاشرة مساء..... تقديم الإعلامية اللامعة الأستاذة منى الشاذلى، فحكى حكايته بالدموع والقهر، وأظهر للعيان الظلم الفادح الذى نزل به،

وكان يُصاحبه فى البرنامج وكيل المدرسة.... رجل مسيحى... كان ألمه شديدًا ودافع عن المدير باستماتة، وأشاد به فى بلاغة، ونفى عنه ما اتهمته به الصحفية الناشئة، وانتقلت الكاميرات إلى القرية الآمنة، ووقفت سيدة مسيحية على وجهها الطيبة والأصالة، وقالت فى بساطة " نحن فى القرية لا تجرأ أى سيدة أو فتاة مسيحية أو مسلمة أن تخرج إلى الشارع وشعرها مكشوف.... هذا عيب ولا يَصح!"

وقال وكيل المدرسة إن كل البنات فى المدرسة يرتدين الإيشاريات، وأننا لاحظنا فى الآونة الأخيرة أن ألوان الإيشاريات تعددت بصورة تُهدد المنظر الجمالى العام فى المدرسة..... فهذه تلبس إيشارب أحمر، والأخرى أصفر . هكذا..... لذا قررت إدارة المدرسة توحيد اللون، واخترنا اللون الأبيض، وامتثلت له البنات، ولو كانت الصحفية أرادت أن تعرف الحقيقة لسألت، ولما تسببت برعونتها فى إيذاء مدير المدرسة، وحدوث بلبلة ومشكلة لا داعى لها!

طبعًا ظهرت الحقيقة عارية، وانكشفت النفوس السيئة، واضطر الوزير أن يُعَدّل قراره، فألغى نقل المدير، وألغى قرار الخصم، وهدأت العاصفة التى اجتاحت القرية لعدة أيام!..... ولكن السؤال ماذا لو لم يستطع المدير أن يصل إلى شاشة التليفزيون؟

- صحيح.... لو لم يستطع المدير أن يصل إلى التليفزيون، لتاهت الحقيقة..... بالفعل يجب إعادة النظر عند تشكيل أجهزة المتابعة حتى تكون عيون أمينة للوزير أو المسئول، ولا بد أن تكون هناك معايير سليمة وواضحة وصحيحة لاختيار أفرادها حتى لا تكون هناك مهزلة مثل التى حكيت عنها اليوم وفى لقاءات سابقة، ولكن هل هذه الحادثة خاصة بزميلك الذى قابلته اليوم فى ميدان الجيزة؟

- نعم وهو الذى أوحى لى بموضوع اليوم.

(١٣)

الدروس الخُصوصية.... لماذا؟

الدروس الخصوصية أصبَحَت مُشكلة فى العالم العربى وليس فى مصر وحدها، وبدلاً من أن يكون التعليم نَفْسَه طريقًا لحل مشاكل المجتمع، تَحَوّل هو نفسه إلى مُشكلة تستلزم الحل، وأخطرها استنزاف موارد الأسرة، وإهدار مبدأ تكافؤ الفرص!

obeikandl.com

- هل قرأت تقرير مجلس الشورى عن حجم الإنفاق على الدروس الخصوصية؟

- طبعًا.... لم أكن أتصوّر هذا الرقم أبدًا.

- ١٥ مليون جنيه تُنفقها العائلات المصرية على الدروس الخصوصية..... رقم كبير جدًا بالرغم من انخفاض مُعَدّل النمو من ٢,٥ ٪ إلى ١,٥٪

للأسف..... الدروس الخصوصية أصبحَت بالفعل أحد أهم المشاكل التى تواجه الأسرة المصرية، ولكن يوجد شىء آخر لم تذكره.

- ما هو؟

- تُنفق الأُسَر المصرية أكثر من ١,٥ مليار جنيه شراء الكُتُب الخارجية!

- هذا اتهام صريح للكتب التى تُقَرّرها الوزارة، وهو فى نفس الوقت تأكيد لما يَشْتَكى منه المؤلفون الذين يُسَلّمون أصول الكُتُب للوزارة، ثم تقوم الوزارة بتحويلها إلى مراكز تطوير المناهج والمواد العلمية، وهذه المراكز كوادرها مُتَّهَمَة بأنهم أنصاف مُؤهّلين، وتحت مُسَمّى الإضافة وإعادة الصياغة يُغَيّرون فى المواد ويحذفون أشياء ويُضيفون أشياء أُخْرى، ويخرج الكتاب المدرسى مُشَوّهًا، ومُخالفًا للأصل، ويتسبب فى حدوث خلل واضطراب لدى المُدَرّس والطالب، وبالتالى اللجوء للكتاب الخارجى، فضلاً عن احتواء الكتاب الخارجى على نماذج عديدة من الأسئلة، وامتحانات السنوات السابقة.

- هذه الأمور جارى إعادة النظر فيها..... الكتاب المدرسى يُكلّف الدولة ملايين الجنيهات، والكلام الذى ذكرته معناه ضياع هذه الملايين!

- من الأسباب أيضًا التى تَجْعل المدرسين يلجأون إلى الكُتُب الخارجية عندما تُقَرر الوزارة منهجًا جديدًا بدون أن يتدرّب المدرسون عليه تدريبًا كافيًا.

مثلا عندما قَرّرَت الوزارة إدخال مادة للرياضيات الحديثة سنة ١٩٧٠ كان المدرسون يتدربون ليلاً وفى النهار يُدَرّسون للتلاميذ..... هذه المادة كان فيها فكر جديد، ولكنها كانت تُدَرّس بطريقة تقليدية عن طريق الكُتب الخارجية مما انتفى الهدف منها!

- لكن تَظَل الدروس الخصوصية هى المُشْكلة الأم التى شَغَلَت وما زالت وزراء التربية فى العُقُود الأربعة الأخيرة.

كان زمان الدرس الخاص يُعْتَبَر عار على التلميذ، ودليلاً على عدم تَفَوّقه وتَدنّى مُسْتَواه، أما الآن فإن الأُسَر تَفْخَر بأن أبناءها يَأخذون أكثر من درس فى المادّة الواحدة، أو دروس فى كُل المواد، حتى دروس فى التربية الفنية، وللأسف الشديد فقد استَشْرَت ظاهرة الدروس الخصوصية مُنذ أوائل السبعينيات فى القرن الماضى، ولم تَستَطع الحكومات المُتَعاقبة أن تَضَع الحلول الحاسمة لمواجهتها، فاستشرت وازدادت!

تَمّت دراسة مؤخرًا أثبتت أن كل أسرة تتكلّف فى المُتَوَسط نحو ٥٠٠ جنيه شهريًا، وأن نسبة التلاميذ الذين يلجأون للدروس الخصوصية فى ازدياد، وفى دراسة لمجلس الوزراء المصرى كَشَفَت أن النسبة ما بين ٦١٪ إلى ٧٧٪!

- الظاهرة الغريبة أن الأسرة تلجأ للدروس الخصوصية ليس لضعف الأبناء كما كان يَحْدُث فى الماضى، ولكن بسبب الحُصول على مجاميع أفضل، وفرص أكبر للالتحاق بكلّيات القمّة!

- هذا صحيح، وهو بالتالى يتسَبّب فى تَدْمير مبدأ تكافؤ الفرص، ويَقْضى على حَق بعض التلاميذ فى دخول هذه الكليات بسبب ضَعف مُسْتواهم المادّى.

- الدروس الخصوصية أصبَحَت مُشكلة فى العالم العربى وليس فى مصر وحدها، وبدلاً من أن يكون التعليم نَفْسَه طريقًا لحل مشاكل المجتمع، تَحَوّل هو نفسه إلى مُشكلة تستلزم الحل، وأخطرها استنزاف موارد الأسرة، وإهدار مبدأ تكافؤ الفرص!

يجب على الحكومة مواجهة هذه المشكلة بالحكمة والعقل، واللجوء إلى الحلول الصحيحة، وليس بالعنف والإرهاب واستخدام الشرطة كما حدث من قبل.

- الوزارة من جانبها تُشَجّع المجموعات المدرسية بأسعار تُناسب التلاميذ، وهناك جهود المساجد والكنائس، وجهود بعض الجمعيات الخيرية التى تُنَظّم فصول للتقوية مجانًا أو بأسعار رمزية.

- لاشك هذه جهود طيبة، ولكنها قليلة بالنسبة لحجم المشكلة، مع العلم بأن المشكلة ليست مادية فقط، ولكن لها خطورتها على التعليم نفسه، وعلى مُستَقْبل الأمة خاصّة بعد أن أصبحت الثقافة السائدة لا ترقى إلى النظر إلى المشكلة بعين الموضوعية..... ربما أن نظام الامتحانات هو المسئول عن ذلك!

يجب أن يعرف الناس أن الدروس الخصوصية لها أضرار خطيرة.... اسمح لى أن أذكر بعضها.

- تفضّل.

- الدروس الخصوصية تُعَوّد التلميذ على الاعتماد والاتكالية والخمول العقلى، ولا تَجْعَله يَتَعَوّد على التفكير والبحث والإبداع لأنه تَعَوّد أن تُلَقّن له المعلومة بدون عناء.

ذَكَرْت قَبْلاً أن نظام الامتحانات عندنا قائم على الحفظ والتلقين، وتكرار الأسئلة من عام إلى عام، وعدم وجود أسئلة إبداعية أو ابتكارية، مع خوف واضع الأسئلة من وسائل الإعلام أن يتهموه بوضع أسئلة صعبة تَجُر عليه المتاعب، فيشترى راحته ويضع امتحانات فى مُسْتوى الطالب المتوسط فيتساوى الطالب العادى مع الطالب صاحب المُسْتوى المُتَمَيّز، ويصعب التمييز بينهما فى ظل المجاميع المُرْتفعة جدًا.

- نحن فى سبيلنا إلى مراعاة هذه النقاط عند تطبيق نظام الثانوية العامة الجديد.

- هذه أيضًا إحدى المشكلات التى تؤدى إلى ازدياد مشكلة الدروس الخصوصية

- ماذا تَقْصُد بذلك؟

- أقصد عدم استقرار السياسة التعليمية..... فنلاحظ أنه عند تغيير وزير التربية والتعليم يُلْغى سياسة ما قبله، ويُحاول أن يتبنى سياسة جديدة، ونظام تعليمى جديد، وبناء على ذلك تزداد مشاكل التعليم ومنها مشكلة الدروس الخصوصية، ومما يَدُل على ذلك أن نظام الثانوية العامة القديم كان الإقبال على الدروس الخصوصية فيه قليلاً.

- والله إنك تُغلق أمامى الأبواب، وتُحَمّلنى مُشكلة قديمة.... أنا نفسى عانيت منها مع أولادى، ولكنى أريد أن أسمع منك بعض الحلول من وجهة نظرك.

- الحلول المنطقية وليس الالتفاف حولها، وأولها بحث المُشكلة من كل جوانبها، ودراسة كل أبعادها، والتعَرّف على أسبابها، مع اعتبارها مُشْكلة قومية تُؤثّر على مُسْتَقبل الوطن، ولها أخطارها المُباشرة على التعليم، الذى أصبح انهياره الملحوظ سببًا فيما نُعانيه من مشاكل فى كُل فروع حياتنا، وأن نتلَمس فى بحثنا الأخذ بآراء الخبراء الحقيقيين والعاملين فى الميدان، والمُرْتَبطين ارتباطًا مباشرًا بالمشكلة مثل أولياء الأمور، والمُعَلّمين.

مثلاً... أنا قَرَأت دراسة أعَدّها أحد المُعَلّمين استنتج منها أسباب إقبال التلاميذ على الدروس الخُصوصية.

- هل يُمكن أن تَذكر لى أهم ما فيها.

- طبعًا..... هى كثيرة، وأهم ما فيها الرغبة فى الحصول على مجموع مُرْتَفع،

وكذلك إصرار ولى الأمر على تعليم ابنه بما لا يتلاءم مع قُدراته الحقيقية، أيضًا صُعوبة المناهج، وكثرة المواد، وأعداد التلاميذ الكبيرة فى الفصل الدراسى، أيضًا عدم وجود المُعَلّم المؤهّل.... الفاهم لرسالته، والقادر على أدائها، والضغوط التى يُمارسها بعض المعلّمين على التلاميذ، وكذلك عدم كفاية زمن الحصة، عدم تمكين المُعلّم من الشرح فى الفصل بسبب مشاغبات بعض التلاميذ الذين يأخذون دروس خصوصية!

وعندما سأل الباحث بعض المُعلّمين عن رأيهم فى إعطاء الدروس الخُصوصية أكدوا أنهم مُجبرون عليها لضعف رواتبهم، وأنها عَمَل مُرهق ومُمل، واعترفوا أن الدروس الخصوصية تتنافى مع مبدأ تكافؤ الفرص، وتَجْعَل مجانية التعليم حبرًا على ورق، وأنهم على استعداد للبُعد عن الدروس الخُصوصية متى توافرت لهم الإمكانات المادية التى تُوفر لهم الحياة الكريمة، وأنهم فى الحقيقة يَشْعُرون بالمهانة والإهانة والضيق وهم يلجأون لإعطاء الدروس الخصوصية!

لم يُغفل الباحث توجيه بعض الأسئلة إلى بعض أولياء الأمور، وتبين أن لجوئهم لإعطاء دروس خصوصية لأبنائهم هو انشغالهم بأعمالهم، وعدم وجود وقت لمتابعة أبنائهم دراسيًا، ويتركون ذلك للمُعَلّم الخاص، ومنها أيضًا تدليل الأبناء منذ الصغَر، وتَعَوّدَهم على الدروس الخصوصية، بل ويُشجّعونهم على ذلك، وبذلك لا يتَعَلم الطفل الاعتماد على نفسه، ويظل ذلك ملازمًا لهم طوال حياتهم!.... أيضًا عدم الثقة فى المدرسة، وأيضًا الشعور بالخوف من الامتحانات وعدم حصول أبنائهم على المجاميع المطلوبة، كذلك إصرار بعض أولياء الأمور على تعليم أبنائهم فى نوعية من التعليم لا تتلاءم مع قُدراتهم!

عند هذه النقطة يحْضرنى موقف شَهدته بنفسى منذ أكثر من خمس وعشرين سنة..... كُنت وقتها مدرسًا فى مدرسة إعدادية، وكان لى زميل يعمل مدرسًا أول.... مرموقًا فى مادته وله اسم رنّان، وسُمْعَة طَيّبَة..... حصَل ابنه على الإعدادية بمجموع مُرتفع يُمَكّنه من الالتحاق بالتعليم الثانوى العام الذى هو الباب الملَكى للجامعة، ولكننا فوجئنا بتقديم أوراق ابنه إلى مدرسة صناعية فى شُبرا اسمها "التومبوسكو" تتبع النظام الإيطالى فى التعليم!

أذكر أننى وقتها استهجنت هذا التصرّف، وسألته فى استنكار "كيف تُلحق ابنك بمدرسة صناعية، وأنت خريج جامعة ومدرس أول فى اللغة الانجليزية؟!"

قال لى يومها، وعلى وجهه ابتسامة، وثقة "أنا أعرف قُدرات ابنى، وأعرف ميوله، وإمكاناته، وهذه المدرسة هى اختياره بعد أن أقنعته بها"

لم أقتنع بكلام زميلى، ولكن الأيام أثبتت صدقَه وبُعد نظره، وفهمه العميق للحياة..... تُفوّق الولد فى الدراسة، وأظهر ميوله الفنية التى أهلّته للعمل فى إيطاليا سنوات طويلة، ثم عاد إلى مصر، وبنى مصنعًا كبيرًا فى العاشر من رمضان.

لو كان زميلى أدخل ابنه مدرسة ثانوية عامة ضد رغبته، وغير مناسبة لقدراته كان بالقطع سيلجأ للدروس الخصوصية ليُعَوّض النقص الذى عنده، وفى النهاية يتخرّج من الجامعة ليعمل فى وظيفة لا يُحبها فلا يستفيد ولا يُفيد!

- لو أن أولياء الأمور يتصرّفون بهذه الموضوعية لما استشرى وباء الدروس الخصوصية إلى هذا الحد.
- لذلك قُلْت لك إننا فى حاجة ماسة إلى تغيير ثقافة المجتمع، ليمتلك أفراده الرؤية الواقعية فى تعليم أبنائهم.
- هذا صحيح وأوافقك عليه..... ولكن توجد أشياء أخرى لا بد من مراعاتها، ونحن بصدد تناولها التناول الموضوعى ليكون لها الإسهام فى التقليل من مُشكلة الدروس الخصوصية مثل تعديل المناهج الدراسية، وربطها بالأنشطة المدرسية، وتشجيع البحث والاطلاع الحُر، ووضع أسئلة غير نَمَطية، وغير مُكَررة هدفها قياس قُدرات التلاميذ الفعلية وتوجيههم لما يُناسب قدراتهم وميولهم.
- هذا اتجاه محمود سوف يكون له أكبر الأثر، ولكنك أغفلت جانبًا مُهمًا فى حل هذه المُشكلة.
- يا ترى ما هو هذا الجانب المهم؟
- الجانب المَنْسى دائمًا..... عندما نتحدث عن إصلاح التعليم نتكلم عن المناهج، وطرق التعليم والمدرسة وساعات الدراسة واليوم المدرسى والأنشطة.... كل شىء إلا الشىء المُهم، وهو إصلاح حال المُعَلم.
- عندك حق.... لكن الوزارة لن تُغفل ذلك فى المُسْتَقبل.... هناك إجماع بين الخبراء على أن المُعلم هو أساس عملية الإصلاح، وبه سنبدأ إنشاء الله.
- احتمال!!

(١٤)

قرار مشبوه....!

.... هل تُصَدّق ان ذلك كان قرارًا من وزير مُسلم..... كيف طاوعه قَلْبَه ان يُوَقّع مثل هذا القرار المشبوه والمويوء، ولكنى أريد ان اذكر لك شيئًا..... كثير من المديرين لم يُنَفّذوه، وبنوا المساجد فى المدارس غصبًا عنه، ولم يَجرؤ اى مسئول أن يَعْتَرض، ولكن الحمد لله جاء الدكتور أحمد جمال ورمى بالقرار السابق فى الزبالة، وسمح بإقامة المساجد فى المدارس مرة أخرى.

obeikandl.com

- فى أى موضوع سنتحدّث اليوم؟

- أعتقد أننا لم نتحدّث عن المدرسة بعد.

- تقصد المدرسة كمبنى، أو المدرسة كدور وأهمية.

- لا مانع من الكلام فى الموضوعين.

- أعتقد أن المدرسة كمبنى ليس فيها حديث كثير.

- العكس هو الصحيح، وأعتقد أن الكلام عن المدرسة كمبنى يُمكن أن يستغرق الوقت كلّه.

- كيف ذلك.... ألا تعرف أن عندنا هيئة الأبنية التعليمية، وعندها نماذج لكل أنواع المدارس، وضعها الخبراء، ويراعون فيها كل المواصفات المطلوبة.

- قبل الحديث عن المدارس التى تُنَفّذها هيئة الأبنية التعليمية أرجو أن تصحبنى فى زيارة إلى مدرسة عملت فيها فى بداية حياتى العملية..... هذه المدرسة بَنَتْها هيئة اليونسكو فى نهاية الخمسينيات من القرن الماضى، ثم بعدها سوف نزور مدرسة من التى بنتها هيئة الأبنية التعليمية..... وسوف ترى الفرق واضحًا وضوح الشمس.

- لا داعى لهذه الزيارة، ولكن يُمكن أن تُحَدّثنى عن هذا الفرق، وسوف أُصَدّقَك.

- لا بأس.... المدرسة التى بنتها هيئة اليونسكو اسمها مدرسة رمسيس الإعدادية..... الفخامة التى توحى بالمهابة.... الفصول الواسعة ذات النوافذ الضخمة، وحجرات المعامل ومكاتب المدرسين، وحجرات الأنشطة على اختلاف أنواعها، ومكتبة كبيرة وواسعة، ومسرح فخم فى الدور الأرضى، وملاعب واسعة وكبيرة لكل الألعاب، ودورات مياه فخمة فى كُل دور، ويوجد مسجد فى المدرسة لأداء الصلوات، وتعليم التلاميذ تعليمًا عمليًّا كيف يؤدون الصلاة، ويُمارسون نشاطهم الدينى من خلاله. ولكن لن أتحدّث عن مبانى الأبنية التعليمية فالقُبح هو العنوان، والفصول ضيقة وخانقة، وهناك جريمة واضحة تُصاحب إنشاء هذه المدارس تُعَبر عن الغَفْلَة وقصر النظر، والتفكير القاصر.

- كُل ذلك يا أخى!.... جريمة مرة واحدة!

- وأكثر.... لو كان لى سُلْطة الحساب لحاسبتهم حسابًا عسيرًا، ولأحضرت هؤلاء المهندسين، وسألتهم سؤالاً واحدًا " هل يعقل أن يكون هناك مبنى مُكَوّن من خمسة أدوار، وبه ألف تلميذ على الأقل وليس به دورة مياه واحدة؟"

- ماذا تقول.... هل هذا حقيقى؟..... أقصد هل هذا واقع؟

- نعم..... ويُمكن أن تتأكد بنفسك عند أول زيارة لمثل هذه المدارس، وهى كثيرة!

- غريب ما أسمع، ولكن هل ذُكر لك أحد من المسئولين عن السبب..... لو كُنت تعرف..... أرجوك أخبرنى....

- نعم سألت، وكان الرد غريبًا.... غَرابَته فى سذاجته....!

- كيف ذلك؟

- قال لى مسئول كبير فى هيئة الأبنية، فى ثقة يُحْسَد عليها..... إننا اكتشفنا أن دورات المياه هى السبب فى تدمير المبنى وتعَرّضه للسقوط، حيث تتسرّب المياه إلى الحوائط والأرضيات.... لذلك قررنا نحن الخبراء والفاهمين ألا نقيم دورات مياه فى المبنى، ونُقْصرها على الدور الأرضى أو فى الحوش!

كلام صغير من مسئول كبير يُدارى به الفساد الذى يشوب البناء والتنفيذ، ويُبَرر به فساد الذمم..... زيارة واحدة إلى المدرسة التى ذكَرْتُها لسيادتك والتى بنتها هيئة اليونسكو، سوف تجد دورات المياه على حالها وكأنها بُنيت بالأمس القريب، وستجد المبنى على حاله وكأنه مبنى جديد، وفى نفس الوقت سوف تكتشف أن مبانى هيئة الأبنية التعليمية والتى تخلو من دورات مياه وكأنها بُنيت من مائة سنة!

- كلام غريب أسمعه لأول مرة، سوف يكون لى وقفة حاسمة تجاه هذا الموضوع..... أدوار كاملة بلا دورات مياه!

- المفروض وجود دورات مياه فى كل دور، أو دورتان إذا كانت المدرسة مُشْتَرَكَة وفيها بنين وبنات..... أريد أن أسأل الجهابذة فى الهيئة لو أن طفلاً مريضًا بالقلب فى الدور الرابع كيف يقضى حاجته، أو أن مدرّسًا مريضًا بالسكر ويحتاج إلى دورة المياه فى أوقات مُتقاربة... ماذا يَفْعَل.... لقد رأيت بعينى أكثر من طفل يتبوّل على نفسه ولا يلحقها قبل الوصول إلى دورة المياه، فضلاً عن ازدحام دورات المياه وقذارتها الدائمة، واتخاذ الذهاب إلى دورات المياه حُجّة للهروب من الحصّة!

- الحمد لله أن عَرَفْت أشياء كانت خافية عنى.... من المؤكد أننى سوف أضعها فى اعتبارى.

- شىء آخر أريد أن أتَحَدّث عنه.... يُعْتَبَر من جرائم هيئة الأبنية التعليمية.

- شىء آخر... يا رب استُر.

- تصميمات المدارس فى عهد هيئة الأبنية السعيد لا تضَع فى اعتبارها وجود مسجد فى المدرسة..... هل هذا معقول؟

- لا.... طبعًا.... إنها جريمة فعلاً!.....

- وأى جريمة.... هل تُصَدّق أن ذلك كان قرارًا من وزير مُسلم..... كيف طاوعه قَلْبُه أن يُوَقّع مثل هذا القرار المشبوه والموبوء، ولكنى أريد أن أذكر لك شيئًا..... كثير من المديرين لم يُنَفّذوه، وبنوا المساجد فى المدارس غصبًا عنه، ولم يَجرؤ أى مسئول أن يَعْتَرض، ولكن الحمد لله جاء الدكتور أحمد جمال ورمى بالقرار السابق فى الزبالة، وسمح بإقامة المساجد فى المدارس لا مرة أخرى.

- الحمد لله.... يبدو أننى سوف أفتح ملف هيئة الأبنية التعليمية، ولكن هل لنا أن نتحدّث عن المدرسة بعيدًا عن مشاكل البناء والإنشاء.

- نتكلّم عن دورها فى تكوين الفرد والمجتمع.... ولكنه سوف يُثير الغَضَب!

- لا... لا... لا تخاف.... اتفاقنا كان واضحًا.... الهدف هو إلقاء الضوء على ما نستطيع أن نَرْصُدَه من سلبيات!.... وأنا ما جئت الوزارة إلا بتكليف واضح ومُحَدد.... إصلاح حال التعليم، ولن ينصلح الحال إلا بالوقوف على طبيعة المرض حتى يتقَرر العلاج الصحيح والمُناسب.

- نتّفق أولاً أن المدرسة لم تَعُد تَلْعَب دَوْرَها المنوط به، وأصْبَحَت عوامل الطّرد فيها أكثر من عوامل الجَذْب..... المدرسة للأسف تَخَلّت عن دورها فى إعداد الجيل الواعى والمُثقّف..... المدرسة لم تَعُد تقوم بواجبها فى تزويد المُعَلّمين بأسلحة المُسْتَقْبَل علميًا وخُلُقيًا..... الأمية ازدادت.... الغش أصبح آفة.... الهروب من المدرسة أصبح سمة ومشهد يومى ومصدر فخر واعتزاز..... المدرسة تَخَلّت عن دورها التعليمى، وحلّت الدروس الخصوصية مَحَلّها فى البيوت، ومراكز التقوية، ولم يعد هناك مبدأ الثواب والعقاب، فَتَفَشّى الإهمال وتضاعفت السلبية وتساوى الشاطر والمُهْمل!

العالم من حولنا يَتَقَدّم بل يُهَرْوِل، ونحن فى مكاننا لا نَتَحَرّك.... بل فى الواقع نَتَراجع، وندفع نحو هُوّة التخلّف والضياع الحضارى!

من أهم أدوار المدرسة أن تُهَيء للتلميذ فُرَصًا غنية لاكتساب عُضوية الفرد والمُجتَمَع، وذلك بتَزْويده بثقافة المُجتَمَع الذى يعيش فيه، وأن تقوم أيضًا بتَوْعيته بمشاكله ومسئوليته فى المُشاركة فى حَلّها، كذلك مُساعدته على تحقيق التكامل بين أبعاد شخصيته، وتوفير مُناخ سليم يَرْتكز على أساس ديموقراطى لتشجيع الفرد المُتَعَلّم على تَفجير طاقاته، وإفساح المجال له للتعاون مع أقرانه، ودَفْعه إلى المُشاركة فى تحقيق أهداف الجماعة، كذلك اهتمام المدرسة بالنواحى السلوكية فى الفرد المُتَعَلّم.

لكن انظر إلى المدرسة اليوم.... من أول لحظة فى أرض الطابور، وما فيه من فوضى وتَسَيّب..... انظر إلى الفصول الضَيّقة الخانقة المُكَدّسَة بالتلاميذ،.... أُنظر إلى وجوه التلاميذ البائسة... ضيق وضجر وزهق.... لا يستمعون إلا لكلام..... كلام.... كلام، وأفواههم مُغْلَقة، وعقولهم تسبح فى أشياء أخرى ليس لها صلة بما يحشوه المُعَلّم فى عقولهم فى ظل مناهج جامدة.... مُعَلّبَة.... لا تبعث على التفكير، ولا تَسْمَح بالنقاش وتبادل الحوار، واستخدام العقل والتفكير.....

انظر إلى مدرسة يموج فيها صراع ممقوت بين عناصر العملية التعليمية.... صراع بين ولى الأمر والمدرسة والمعلم والتلميذ فى ظل انعدام الثقة، وفُقْدان روح التعاون.

انظر إلى مدرسة تفتقد لوجود أنشطة جادة تُناسب قدرات التلاميذ، وتتواءم مع قُدراتهم، وتجذب اهتماماتهم، وتبعث فى نفوسهم مشاعر البهجة والترويح، والخروج من جو الدراسة الكئيب..... أنشطة تُفَجّر الطاقات، وتُبرز المواهب، وتُعطى أملاً فى تحقيق الآمال والأحلام.

لا بد من وقفة جادة من الخُبراء وليس الأوصياء لإعادة التوازن المفقود بين عناصر العملية التعليمية، واعتماد مناهج جديدة مُطَوّرَة تُلائم العصر، والاهتمام باللغة العربية والدين لتأكيد الهويّة والاعتزاز بحضارتنا، والتمسّك بثوابتها.

كذلك استخدام أفضل الطرق والوسائل لتوفير بيئة تَعْليمية تفاعلية لجَذْب اهتمام الطّلَبة وحَثّهم على تبادل الآراء والخبرات، وإتاحة الفرصة لهم لتطوير معرفتهم، وحَثّهم على البحث والتفكير.

يجب أيضًا التَخَلّص من تقنيات الامتحانات القديمة التى تقيس فقط الحفظ

والتلقين، وتُهْمل القُدرات الخاصة، وتُساوى بين المُتَعلّمين.

يجب أيضًا إدخال التقنيات الحديثة كالحاسبات، واستخدام شبكة الإنترنت، ووسائل الاتصال الحديثة، والمعامل المُطَوّرَة، ووضع برنامج جاد للاستفادة من خبرات الغير، والبناء فوق ما وصلوا إليه.

- هذا ما نصبوا إليه فعلاً، وقد قطعنا خطوات جادة فى هذا المجال.... ربما تكون موضوعنا فى اللقاء القادم.

- أنا أعرف أنك مُهْتَم بهذا المجال، وأعترف أن فيه جهودًا كبيرة تتم فى هذا الشأن..... لاشك سنتكلّم فيها.... ولكن ستكون أنت المُتَكلّم، وأنا المُسْتَمع، فأنت فى هذا المجال العالم والخبير.

- إن شاء الله.

obeikandl.com

(١٥)

التعليم الحديث
فى مواجهة المُتَغيرات الجديدة

يجب التأكيد أولاً أن المناهج المُزْمَع استخدامها تُمَثل فقط جزءًا من المُقَرر، وليست كل المُقَرر..... وهى تُتيح للتلميذ أن يَكْتَسب خبرات جديدة سواء داخل المدرسة أو خارجها.... أى بطريقة أخرى يَسْتَخدم التلميذ المادة الدراسية المُقَررة للانفتاح على مُجْتَمعه، وتُتيح له أن يتعامل مع مشاكله المُحيطه، وأن يُحاول أن يَجد لها تَطبيقات فى حياته العملية.

obeikandl.com

- كنا نتحدّث عن المدرسة فى اللقاء السابق من حيث المبنى، ومن حيث ضرورة قيامها بدورها الجديد فى تحديث العملية التعليمية..... أى يُمكن أن نُطلق عليها "مدرسة المُستَقبَل"

- اتّفقْنا أيضًا على حتمية الإسراع بتغيير المناهج لتكون البداية فى عملية الإصلاح، مع التأكيد على أن الخبراء مُجمعون على أن المناهج المُزمَع استخدامها تُمثل فقط جزءًا من المُقرر، وليست كل المُقرر..... وهى تُتيح للتلميذ أن يَكتَسب خبرات جديدة سواء داخل المدرسة أو خارجها..... أى بطريقة أخرى يَستَخدم التلميذ المادة الدراسية المُقررة للانفتاح على مُجتمعه، وتُتيح له أن يتعامل مع مشاكله المُحيطه، وأن يُحاول أن يَجد لها تطبيقات فى حياته العملية.

- يَعنى يُدرك التلميذ أن ما يدرسه فى المدرسة له امتداد وتحقيق فى بيئته خارج المدرسة، فيَدرُسَه ويُذاكره ويَفهَمه ويستَوْعبه بعناية واهتمام.

- هذا يؤكد ما سبق أن ذكَرْتُه من أنه يَجب تنويع المقررات الدراسية تبعًا للبيئة التى سَتُدَرّس فيها..... يعنى المُقرر الذى سيتم تدريسه فى بيئة زراعية يجب أن يختلف عن المُقرر الذى سيتم تدريسه فى بيئة صناعية أو بيئة صحراوية..... كل بيئة لها ملامحها الخاصّة واهتمامها ومشاكلها المُختَلفة.

أى العمل على التخلّص من المركزية فى وضع المناهج..... وأرجو أن يكون ذلك من أوائل اهتماماتك..... لأننا لو نجحنا فى ربط المدرسة بالبيئة المُحيطة كلّما كانت المدرسة موضع الاهتمام والاحترام، ويُؤدى ذلك بالطبع إلى التربية الصالحة للتلميذ، لأنه بهذه الطريقة سوف أنتشله من براثن النظام القديم أو المناهج القديمة التى كانت تدفعه إلى الحفظ بدون فهم، وبدون اهتمام، ثم يذهب إلى الامتحان ويضع المعلومات التى حفظها فى ورقة الإجابة، ثم ينساها بعد ذلك فلا استفاد ولا أفاد، أما فى ظل المناهج الجديدة فسوف يكون لدى التلميذ فُرصَة للتفكير والبحث والاطلاع من أجل إيجاد حلول لمُشكلة ما يُواجهها مُجتَمَعَه، ويتَعَرّف على الطرق العلمية التى عليه أن يَسلُكَها وذلك بالقطع سوف يؤدى إلى ازدياد الثقة بالنفس، وترسيخ مفهوم العلم فى حل المشاكل، وفى التقدم الحضارى أيضًا، وفى كسب احترام المُجتَمَع.

وفى ورقة الإجابة.. فى ظل تقنيات الامتحانات الحديثة يستطيع التلميذ أن يستعرض

إمكاناته لحل مُشكلة ما مطروحة عليه لحلّها فى مُجتمَعه، وفى نفس الوقت يستطيع المسئولون أن يَتعَرّفوا على قدراته ومهاراته، وتوجيهها فى الاتجاه الصحيح، فيفيد مُجتمعه، ويأخذ كل منهما بيد الآخر نحو التَقدّم السريع.

- لكن لا يجب إغفال أن التقنيات الحديثة المُستَخدَمة فى التعليم واحدة فى كل مكان فى العالم، وذلك ما يجب التركيز عليه فى المراحل الأولى.

- ماذا تَقْصد بذلك؟

- أقصد أن المناهج..... بفرض تَعَددها حسب البيئة كما اتفقنا تعمل جميعها باستخدام التعليم الحديث، أو ما يُسَمّى بالتقنيات الجديدة فى التعليم، أو ما يُطلق عليه التعليم الألكترونى بما يُمَثّله من إمكانات هائلة.... من حاسبات، وشبكة الإنترنت، وما يُلْحَق بهما من وسائط مُتَعَددة، وجهود الوزارة كبيرة فى هذا المجال، وترصد له كل ما هو متاح من إمكانات مَحَلّية وخارجية.

يوجد اقتناع أن هذا النوع من التعليم يُساعد بدرجة كبيرة على تَنْمية القدرات الإبداعية لدى التلاميذ وأيضًا الابتكار، وخَلْق الفُرَص، ولا يُمْكن التَخَلّف عن هذا المجال.

- كلامك يُذَكّرنى بالحديث السابق عندما سألتك عن التعليم الألكترونى، فليس هناك من هو أجدر منك بالحديث عنه، فأنت الأستاذ الكبير فى هذا المجال.

- ببساطة وبدون فلسفة التعليم الألكترونى هو دمج التكنولوجيا فى العملية التعليمية بواسطة آليات الاتصال الحديثة، وهى كما ذُكِرْت سابقًا الحاسبات، ووسائطها المُتَعَددة من صوت وصورة ورسومات وآليات بَحْث، ومكتبات ألكترونية، وأيضًا بوابات الإنترنت سواء كانت عن بُعْد أو فى الفصل الدراسى..... كُل ذلك يُتيح إيصال المعلومة للمُتَعَلّم بأقصر وقت، وأقل جهد، مع أكبر الفائدة.

- هذا يدفعنى للسؤال عن مجهودات الوزارة فى هذا الشأن.

- هى مجهودات عظيمة، وغير مسبوقة، بدأها من سبقونى، وأنا أواصل المسيرة فقد تم إنشاء مركز التطوير التكنولوجى، ووظيفته الأساسية دعم اتخاذ القرار بهدف التخطيط والتنفيذ والمُتابعة لمشروعات التطوير التكنولوجى بالوزارة والمديريات والإدارات التعليمية والمدارس على مُستَوى المحافظات، وذلك لنشر مفاهيم المعلوماتية فى التعليم قبل الجامعى، وذلك باستخدام تكنولوجيا التعليم

وتكنولوجيا المعلومات وشبكات الاتصالات والوسائل الحديثة ودعم اتخاذ القرار.

هذا المركز له مجالات عديدة يُساهم فيها.... فى مجالات الشئون الفنية حيث يختّص بإمداد المدارس بمعامل الأوساط المُتَعَددة، ومعامل العلوم المُتَطورة، ونوادى العلوم، ونوادى الحاسبات، وبما تحتاجه هذه المعامل من حاسبات وأجهزة الفيديو والتليفزيون ومعامل الليزر ومعامل العلوم المُطَوّرَة.

المركز له أيضًا نشاط رائع فى مجال التدريب..... تدريب المُعَلّمين والعاملين على تكنولوجيا المعلومات، والتدريب على عملية الإدارة الحديثة.

يَختّص المركز أيضًا بإنتاج البرمجيات التعليمية، وذلك بإنشاء قاعدة لإنتاج المواد التعليمية من شرائط فيديو، وبرامج كمبيوتر، وأقراص ليزر، ورسوم مُتَحَرّكَة ووسائل أيضًاح، وله أيضًا اهتمامات فى مجال التعليم الألكترونى، وفى مجال نُظم المعلومات وفى مجال شبكات المعلومات.

- هى جهود عظيمة تحمل آمال كبيرة، ولكننا فى حاجة إلى المزيد حتى يُشارك فى فائدتها مُعظم التلاميذ، مع ازدياد جرعات التدريب للتلاميذ والمُعَلّمين للاستفادة القُصْوى من هذا النظام.

أتمنّى أيضًا حدوث تَعْبئة اجتماعية لدى أفراد المُجْتَمَع للتعامل الفعّال مع هذا النوع من التعليم مع ضرورة مُساهمة التربويين فى صناعة هذا التعليم.

ضرورى أيضًا الاهتمام بالعمل على تقليل الكثافة فى الفصول، فلا يَعْقل أن يكون بالفصل أكثر من ثمانين تلميذًا أو أكثر.... فكيف نُوَفر لهم المكان والأجهزة أو حتى الذين يستطيعون التعامل مع هذا العدد.

هذا يَدْفَعنا للتركيز على نوعيات مُعَيّنَة من التدريب، وفى أماكن مُحددة لتضمن الفائدة، ثُم يتم الانتقال تدريجيًا إلى النوعيات الأخرى، وفى أماكن أُخرى نكون هَيّانا لها البيئة الأساسية والظروف الملائمة لنجاح النظام، أى يَجب الاهتمام بالكيف، ولا يَنْصَب على الكم، حَتّى لا تتبعثر الجهود!

- مَعَك حق..... هذا ما يجب أن يكون.... تركيز الجُهود يمكن أن يُؤدى إلى النجاح، واكتساب القُدْرة على مواجهة المُتَغَيّرات التى نواجهها اليوم..... التعليم المُتَخَلّف لم يَعُد يَصلُح!

- ماذا تقصُد بالمُتَغيرات التى نواجهها اليوم؟

- ثورة المعلومات والاتصالات، أو ما يُسَمّى بثورة التكنولوجيا الثالثة، وثورة الديمقراطية الثانية، وثورة التكتلات الاقتصادية.

- لم تُزدنى الإجابة إلا غُموضًا.... أرجو إيضاحًا أكثر.... أنت تعرف أن قدراتى محدودة فى هذا المجال مقارنة بما تمتلكه. لنبدأ الحديث أولاً عن المُتَغيّر الأول وهو ثورة المعلومات والاتصالات، أو كما تقول ثورة التكنولوجيا الثالثة.

- فى الماضى كانت الثروة هى ما تمتلكه دولة ما من بترول ومواد خام، أو مواد طبيعية، أو ذهب أو فضة، ولكن الثروة الحقيقية الآن هى القُدْرَة على الإبداع والتنظيم والاختراع وامتلاك المعلومات.

سأعطيك مثالاً يُوَضح ما أقول..... لو تَذكر أن اليابان وألمانيا خرجتا مهزومتين فى الحرب العالمية الثانية، وفَقَدتا كُل قدراتهما، ولكنهما لم يفقدا عقول أبنائهما، ولا رصيدهما الفكرى، وبهما انطلقتا من جديد، ووصلتا إلى ما هما فيه الآن من قُدْرَة وقوة.

أى بتوضيح أكثر أن الإنتاج والثروة الحقيقية أصبح يعتمد على كثافة المعرفة أكثر من اعتماده على رأس المال أو المواد الخام.

على سبيل المثال نجد أن إنتاج الحاسب الآلى ٧٠٪ تَرْجع إلى قيمة البُحوث وأعمال التطوّر، ١٥٪ نفقات.... هى نفقات لا الأيدى العاملة.

وفى السيارات لا تَتَعَدّى نفقات الأيدى العاملة أكثر من ٢٠٪.

لذلك لا بد من الخيار الصعب، وهو العمل على تحقيق نُقْلَة تكنولوجية واعية، ونتعامل معها بجدية، وأن تكون لدينا صورة واضحة لما نحتاج من تكنولوجيا هائلة فى عالم ما بعد الصناعة.

- عالم ما بعد الصناعة..... ماذا تَقْصُد بذلك؟

- ما قُلْتُه سابقًا.... العالم الذى يعتمد على امتلاك المعلومات والقُدْرَة على الإبداع والتنظيم والاختراع.

- هذا تَحَد هائل على أن نواجهه حتى لا نضيع، ولكن ما هو المتَغَير الثانى الذى أشرت إليه؟

- هو ثورة الديموقراطية الثانية.

- هذا كلام يحتاج إلى إيضاح.

- ثورة الديموقراطية الثانية أساسها ثورة الاتصالات، وكَمّ المعرفة الإنسانية، وهى تَهْدف إلى قبول التنوّع فى إطار المُساواة.... أى من حق كل جماعة مهما كان حجمها أن تُعَبّر عن إرادتها وثقافتها واهتماماتها، وأن تُمارس حقوقها بحُرّية.

أيضًا تهدف إلى الالتقاء على أهداف إنسانية عامّة أى توجد مبادئ يتفق الجميع على احترامها وكفالتها للجميع، وهى ما يُسَمّى بحق البقاء والنمو والتَقَدّم.

كذلك تهدف إلى عمومية مبادئ حقوق الإنسان..... أى إلزام المُجْتَمَع بإعطاء أفراده حَق التعبير والتعليم والمُشاركة وحق العمل والمَسْكَن والأجر العادل وحق المعرفة والبيئة الصحية والسكن ومُعَدّل التلَوث.

- يتَبَقّى المُتَغَير الثالث.

- ثورة التكتلات الاقتصادية الجديدة..... كان الأجدر أن نُحَققها فى وطننا العربى الكبير..... لدينا كل المقومات والعوامل..... لدينا عامل اللغة والدين والجوار، وعندنا الثروات الكبيرة والإمكانات البشرية الهائلة، ولكننا للأسف لم نستطع تحقيق مثل هذا التكتُل فى الوقت الذى استطاع الغرب تحقيقه..... فكانت الوحدة الأوروبية التى أصبح لها عُمْلَة واحدة وهى "اليورو"، وكذلك ما يُسَمّى بالنمور الجدد فى آسيا.

هذه التكتلات استطاعت أن تستوعب حجم الإنتاج الضّخم، واستيعاب الاستثمارات الكبيرة والتكنولوجيا المُتَقدّمة.

- يُمْكن أن نُخلص من ذلك أن للمدرسة دور هام فى إدخال تلك التغييرات الجديدة لحياتنا والتفاعل معها.

- التفاعل معها بشكل إيجابى، مع اعترافنا بها، وعدم النظر إليها بعُدْوانية، أو بدونية شديدة.

النظرة العُدوانية تعنى الانعزال عن مسيرة التقدم العالمى، وهو أمر خطير يُهَدد وجودنا نفسه.

والنظرة الدونية سوف تجعلنا نركن إلى مزيد من السلبية والتبعية والتَخَلّف.

دعنى أُقرر أن اتباع موقف إيجابى تجاه هذه المُتَغيّرات هو حتمية قبول التحدى، وعلينا أن نتعامل معه بوعى وعلم، وهذا لن يتحقق إلا بالتعليم الجيد الذى يجب أن يتم فى ظل التحديث المطلوب.

- ماذا يُمكن أن يُحَققه التعليم لتحقيق هذه المُتَغيّرات؟

- تنمية قُدرات المُتَعلّم الفردية مع الحرص على الانتماء القومى وروح التعاون والحوار..... كذلك المُحافظة على تُراثنا الحضارى لثقافتنا والعمل على ربطها بالعصر وتطويرها، والعمل على التواصل الحضارى مع الثقافات الأخرى فى العالم والانفتاح عليها، وكذلك تأكيد الذاتية الثقافية العربية والإسلامية للشخصية المصرية، فهى شرط لتأكيد النسيج الاجتماعى والوطن الواحد، والانتماء القومى العربى لارتباط مصر بواقعها العربى حاضرًا ومُستقبلاً.

ما أقوله ليس شعارًا غير قابل للتنفيذ..... ولكنها دَعْوَة لوضع سياسة واضحة نتفق عليها، ويكون طريقنا هو الاعتزاز بثقافتنا، وهويتنا ودينا ولغتنا، وأن نرفع راية التَحَدّى.

- وبذلك نفلت من فَخّ الهيمنة الغربية.

- أكيد..... هذا ما نهدف إليه.

- أنا قرأت أن الدكتور حُسْنى السيد أستاذ بكلية التربية جامعة عين شمس يُرَحّب بالمُقْتَرَح الذى يدعو إلى ربط البحث العلمى بمراكز الإنتاج والخدمات والمرافق، ويراها خُطْوَة سليمة لتنشيط وحدات البحث، والتطوير فى الصناعة لتعود المنفعَة على جميع قطاعات الشعب.

كما يُرَحّب الدكتور حسنى بمقترح وضع خطة قومية تُحَدد مجالات البحوث ذات الأولوية تُشارك فيها الجامعات والمراكز البحثية بالوزارة والمؤسسات المُختلفة تكون بمثابة الضمان لإنهاء العشوائية التى تسير بها الحكومة فيما يتعلّق بالبحث العلمى.

الدكتور عادل عبد الجواد الأستاذ بكلية الهندسة جامعة القاهرة يرى ضرورة مساهمة الاهتمام بالبحث العلمى فى الارتقاء بجميع مجالات الحياة، ويؤيد الاقتراح بزيادة النسبة المُخَصصة للبحث العلمى إلى ٤٪ من الدخل القومى بصورة تدريجية.

فى نفس الوقت ينتقد الدكتور عادل عدم الاهتمام الكافى من الدولة بالبحث العلمى، ويقول إن نهاية أى بحث فى مصر تكون على الأرفف ليُغَطّيه التُراب، وما يتم

من نشر أبحاث فى مجلات عالمية يتم بجهود فردية سواء فى الجامعات أو المراكز.

ويؤكد أيضًا أن مصر ولاّدة للعلماء والنابغين، وبها كفاءات كثيرة، ولكنها لم تأخذ فُرْصَتَها فى الشهرة، ومن سافر إلى الخارج وجد هذه الفرصة لتَوَفّر الإمكانيات التى تجعله يُبْدع فى عمله.

وفى لقاء الدكتور زويل مع شيخ الأزهر أثناء تهنئته على تولّيه منصب مشيخة الأزهر... أكد أن مصر قادرة على إقامة منظومة ونهضة علمية تقود العالم العربى والإسلامى الذى أصبح يُمَثل قوة كُبرى يبلغ عددها ١.٥ مليار نسمة فى نفس الوقت لا يجب أن نغفل أن الغرب يبذل الجهد لوضع العراقيل عَمْدًا أمام أى جهود للتقَدّم، وتطوير السياسات الخاصّة بالبحث العلمى، ونشر الثقافة العلمية وتطوير التفكير العلمى السليم بين الشعوب العربية.

أيضًا لا يخفى علينا أنه يفرض قيودًا شديدة على حُرّية تداول المعلومات وانتشارها بين دول العالم المُتَخَلّف، وكذلك يحتكر إجراء البُحوث العلمية بفضل القدرات المالية الهائلة والاحتفاظ بنتائجها لنفسه تحت فرض مبدأ "الملكية الفكرية"

- صحيح... لذلك أنا أقول إن التحدى كبير، ولكنه ضرورى ضرورة الماء للحياة!

(١٦)

التعليم بعد رُقىّ الخُلُق

يقـول الرسـول الكـريم أيضًـا مُعْليًـا قيمـة الأخـلاق الحميدة، ويَجْعَلها غاية رسالته، وهدفها السامى، فيقول فى حديثه الصحيح "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق"

obeikandl.com

- كان الحكيم المصرى القديم يقول لأتباعه "إنما يتأتى التعليم بعد رُقىّ الخُلُق".

- هذه حقيقة..... فلا توجَد حضارة عَبّرَت عن الحَق والعَدْل بقدر ما عَبّرَت الحضارة المصرية، وليس بين الحضارات القديمة أن قامت حضارة على القيم والأخلاق مثلما قامت الحضارة المصرية.

- لذلك كان نورها ساطعًا يملأ سماء الدنيا، وما زالت آثارها باقية حتّى اليوم تُبْهر القاصى والدانى، ولم يَكُن ذلك يَتَحَقق لولا الارتباط الوثيق بين الدين والبناء الأخلاقى، حتّى أن دفاع المُتَوَفّى عن نفسه أمام مَحْكَمَة الآخرة تَتَضَمّن هذه الكلمات "أنا لم أكذب، أنا لم أغش، أنا لم أقْتل، ولم أسرق، ولم أُسَبب نزاعًا، ولم أطمع فى أى شىء، ولم أسُب أحدًا، ولم أغضب..... لقد تَجَنّبت لَغْو الحديث، ولم أكن مُتَكَبّرًا، ولم ألعَن اسم المعبود، ولم أرتكب خَطيئة خُلُقية"

إذا كان مُجْتَمَع توجد فيه هذه المبادئ الخُلُقية فلا شَك سيكون مُجْتَمَعًا راقيًا وناجحًا عنده أساس متين للبناء الحضارى الشامخ.

- الحقيقة أن الدين يتغلغل فى شرايين المصريين حتى النُخاع، وكان وما زال المُوَجّه الأول لكل شىء فى حياتهم.

- يقول الرسول الكريم أيضًا مُعْليًا قيمة الأخلاق الحميدة، ويَجْعَلها غاية رسالته، وهدفها السامى، فيقول فى حديثه الصحيح "إنما بُعثْت لأتمم مكارم الأخلاق"

- عليه الصلاة والسلام..... لذلك فاسم الوزارة..... وزارة التربية والتعليم..... التربية أولاً..... التى هدفها غَرْس مبادئ الأخلاق، وذلك تأكيدًا لما قاله الحكيم المصرى الذى ذَكَرْته كلماته منذ قليل، والذى يُؤكد فيها أن الأخلاق أولاً ثم يأتى العلم بعد ذلك.

- هذا الاسم الذى تَتَحَلّى به الوزارة أصْبَح شعارًا فقط، فارغًا من مضمونه، أو أنه كان يَعْبّر عَن الماضى.

- يا أخى..... غير مَعْقول ما تقوله..... إنه ليس شعارًا، ولكنه واقع نَعيشه.

- أنت تتحَدّث عن زمان..... عندما كُنت فى مقاعد التلاميذ، وكيف لك أن تَعرف ما يجرى فى مدارسنا اليوم وأنت لم تدخل مدرسة إلا وأنت ولى أمر، أو وزيرا

مُعظم ما يَحدث فى مدارسنا لا يَمُت للأخلاق بصلة.... هل تُريدنى أن أذكر لك بعض الحقائق الأخلاقية المُخزية التى أصبَحت مع الزمن والتكرار والإهمال هى الأساس والقاعدة، وغيرها من ممارسات الأخلاق الحسنة هو الاستثناء!

- لا مانع..... ولكن بدون افتراء، أو تحامل!

- ولماذا أتحامل أو أفترى.... هى حقائق يراها كل ذى عينين.... لنبدأ بالغش فى الامتحانات، والتحريض عليه، بل والتشجيع أيضًا.... أصبح وباء يَنخر فى عظام الوطن.

الانقطاع عن الدراسة والتحايل عليها بالشهادات المرضية المُزَوّرَة، يُحْضرها التلميذ بنفسه، ويتفاخر هو ووالده بالحصول عليها بالرشوة والكذب والغش!

عَدم احترام المدرسة، والحفاظ على مبانيها ومرافقها.... رأيت بعينى التلاميذ يتسابقون برهان كبير على إظهار القُدرَة والمهارة على تصويب الطوب على زجاج النوافذ وتحطيمها وسط التهليل والإعجاب والفخر!..... شاهدت تلاميذ يتسابقون على تحطيم الأثاث المدرسى، بل وإلقائه من النوافذ!

شاهدت مرة تلميذًا فى سن اليفاعة..... وضع حقيبته جانبًا، وشَمّر عن ساعديه، وكان منهمكًا فى خلع شجرة صغيرة من جذورها..... كان يعمل بهمة ونشاط عجيبين..... أوقفت سيارتى وهرولت ناحيته لأنقذ الشجرة المسكينة..... فوجئ الولد بى أقف فوق رأسه..... أصابه الارتباك، وتهيأ للفرار، ولكنى قلت له بسرعة "لا تخف"..... فقط أريد أن أسألك سؤالاً "لماذا تفعل ذلك..... أليس ذلك حرامًا؟"..... نظر إلىّ التلميذ نظرة باهتة، وبان عليه الامتعاض..... أكيد لم يستوعب السؤال..... ولا يعرف لماذا خلْع شجرة من جذورها حرام!..... ماذا يختلف هذا التلميذ عن الذين يُحطمون الأثاث فى المدرسة،.... وماذا سيكون سلوك هذا التلميذ عندما يكبر فى تعامله مع الملكية العامة فى أى مكان..... لم يُجبنى التلميذ وتركنى ساخطًا وقد أفسدت عليه مُتْعَتَه فى التخريب!.....

بعد يومين لم أجد الشجرة فى مكانها..... ربما نفس التلميذ فعلها، أو ربما تلميذ آخر!

ألم تَسْمَع عن اعتداءات التلاميذ على المدرسين وإهانتهم بالفعل والقول!

يا سيدى سوف تُصاب بالدهشة والغثيان وأنت تسمع التلاميذ وهم يتقاذفون بأحط الألفاظ..... التى منها ما يطول الدين، ويخدش الحياء، ويستحق قائلها الإلقاء فى السجن!

أصبح المُعَلّم يخاف أن ينتقد التلميذ، أو يُوَجه له لَوْمًا حتى لا يسمع ما يُؤذيه، أو يناله ما يكره، فَيُؤثر السلامة حَتّى لا يطوله سوط الوزارة، وتقريع المسئولين!

سأسألك سؤالاً بسيطًا.... كيف تستقيم الأخلاق، ولا توجد آلية للعقاب؟..... العقاب دائمًا فى اتجاه واحد فقط، وهو المُعَلّم... وهل تستقيم الدنيا ويسود فيها الحق لولا وجود النار فى الآخرة.... تَخَيل الدنيا بدون وجود الجنة والنار..... بالطبع لن يكون إلا الفساد فى كل شىء، وتسوء العلاقات بين الناس، وتشيع الفواحش، وتُرْتَكَب المُحَرّمات، ويضيع الحق، وتعلو هامة الباطل، وتُصْبح الدنيا عذابًا، والحياة فيها أقسى من النيران!

المُصيبة أن مسئولية المُرَبى تاهت، وتَقَلّص دوره فى التربية، وأصبح السؤال الذى يتردد باستمرار، وفيه مذاق المرارة.... ماذا لو ارتكب التلميذ ذَنْبًا يستوجب العقاب، ولم نُعاقبه؟!.... ماذا نُعَلّم هذا التلميذ المخطئ؟.... بالطبع نُعَلّمه الاستهانة بالذنب، ومن ثم يُعاود فعْلَه وتكراره، ولا يُجدى معه الإصلاح بعد ذلك!

إن العقاب فى حد ذاته ليس هدفًا، ولكنه بالقطع وسيلة للتأديب والردع والتهذيب، والحث على فعل الخير وانتهاج السلوك القويم، والبعد عن القبيح من الأفعال، وقد أمرنا الرسول الكريم أن نضرب الطفل عندما يصل إلى العاشرة، ويرفض أن يُصَلّى، فقال فى الحديث الشريف [مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم وهم أبناء عشر]

وليس من الضرورى أن يكون العقاب عقابًا بدنيًا مؤذيًا يُسَبب عاهة أو يُحْدث ألم.... ولكن يُمْكن أن يأخذ صورة التحذير أو التوبيخ العادى الخالى من السخرية أو الاستهزاء والتحقير.... حتى لهجة الصوت الغاضبة تُعْتَبَر عقاب..... يُمكن أيضًا التهديد باستدعاء ولى الأمر، أو التهديد بإنقاص الدرجات، مع ملاحظة أن العقاب الذى يلائم الذنب يكون بعد ارتكاب الذنب مباشرة، ولا يكون من الخفّة بحيث لا يُحْدث أثرًا، أو من الشدّة بحيث يُشعر بالظُلْم، ويَجْرَح الكبرياء.

أيضًا اختيار الطريقة المناسبة للعقاب أو التأديب، والمربى أو المُعلّم الخبير يستطيع أن يستشف الطريقة المُناسبة لكل تلميذ.... فنوعية العقاب لتلميذ ما، لا تكون مناسبة لتلميذ آخر، وفى هذا المعنى نجد كلام "سحنون الفقيه" فى وصيته لمُعَلّم ابنه "لا تؤدبه إلا بالمدح ولطيف الكلام، وليس هو ممن يُؤدب بالضرب أو العُنف"

وأيضًا ندد ابن خلدون باستعمال الشدة فى التربية فقال "من كان مربّاه بالعَسَف والقهر من المُتَعَلّمين، سطا به إلى القهر، وضَيّق كل النفس فى انبساطها، وذهَب بنشاطها، ودعا إلى الكَسَل، وحَمْله على الكَذب خوفًا من انبساط الأيدى بالقهر عليه، وعلّمَه المكر والخديعة.

التربية الحسنة تكون بالرفق والتلطّف والترغيب والأخذ بأيدى النشء إلى ما فيه صلاحهم عن طريق بعث الرغبة فى نفوسهم، والرسول الكريم خير مُعَلّم للبشرية يوصينا بوصاياه الغالية فى هذا الشأن فيقول "عليك بالرفق فى الأمر كُلّه" ويقول أيضًا "إن الله يُعْطى باللين الخير كلّه"

ذات مرة سألنى تلميذ فى لقاء إذاعى فى طابور المدرسة عن مواصفات المُعَلم الناجح..... قُلْت على الفور "إنه المُعَلّم الذى يُحبّه تلاميذه، وينتظرون حصّته وهو أيضًا يُحبّهم ويُشعرهم بحُبّه لهم".... الحب المتبادل يُولّد الثقة، ويدفع على الإقبال على العلم، والحرص على الظهور أمام من نُحبّه فى أبهى صورة من الجدية والإخلاص والالتزام، ويحقق العدل حتى فى حالة العقاب.... أنا كُنت أعرف مُعَلّمين من هذا النوع وأعرف أنهم يُعاقبون تلاميذهم، ولم يَحدُث أن تلقّيت أى شكوى من أحدهم أو ولى أمره لأن هذا المُعَلّم لا يُعاقب إلا على خطأ، وبعد أن يُوضح هذا الخطأ للتلميذ، وكثيرًا ما كان يصفح عند ارتكاب الخطأ للمرة الأولى.

مما سبق نجد الخبراء يجمعون على أن القسوة فى التربية تَحْمل النشء على الإحباط واليأس والنفور من المعلّمين الذين يلجأون إلى الضرب، وهم فى الواقع جاهلون بمناهج التربية.

القسوة لها أيضًا أضرار عكسية مُدَمّرة رغم حُسن نيّة الضارب فى حَمل المضروب على الاستذكار والحفظ وعمل الواجبات، ويُمكن أن ينشأ مع التمادى فى الضرب إحداث عُقَد نفسية للنشء، وطبعهم بطابع الجُبن والكراهية حتى للتعليم نَفْسَه.

وكم سمعنا من أصدقائنا عن قيامهم بالفرار من الكُتّاب أيام زمان، وكانت "الفَلَقَة والزُخْمَة" تُسَبب لهم الفزع والرُعْب، وإذا أُجْبروا على العودة إليها عادوا وهم يرتعشون ويبكون حتى يُخَيّل للرائى أنهم ذاهبون إلى مقاصل تَجْزُر رقابهم، وعندما استقام شأن الكتاتيب بعد هجر هذه القسوة كان لها الشأن العالى فى التربية الحسنة والعلم النافع.

نستخلص مما سبق أن العقاب وسيلة أساسية ومُساعدة للمُرَبّى ليعالج حالة مُعَينة قد لا تَصْلح إلا بالعقاب المُناسب الرادع، ولكن بشرط أساسى أن يكون المُرَبى أو المُعَلّم مؤهلاً لهذه المُهمة، ولن يتحقق ذلك إلا بإسناد هذه المُهمة إلى خريجى الكليات المُتَخصصة فى التربية، مع التدريب والصقل المُستَمر.

بعدنا قليلاً عن الموضوع الأساسى ولكنى أريد أن أُسجل أيضًا أن إغفال مبدأ الثواب والعقاب بإرهاب المعلم نتج عنه استهتار التلاميذ، وتجاوزاتهم الأخلاقية الصارخة.

كان الغش فى الامتحانات يتم سرًّا فى الماضى، ولكنه يتم هذه الأيام علنًا وبالتهديد وإشهار المطاوى، وأصبح الاعتداء على الملاحظين والمراقبين أمرًا عاديًّا، وأصبح الغش ظاهرة اجتماعية خطيرة تهدد المجتمع.... لا تلقى استنكارًا بل تشجيعًا، وتحريضًا عليه، وأصبح للبرشام مكتبات مُتَخَصصة تُجَهّزه للتلاميذ من كل الأحجام ومن كل نوع!

وإذا كان عند المُعَلّم الملاحظ بعضًا من غيرة وضمير ويحاول منع الغش فى لجنته ربما يتعَرّض للإيذاء، ولا يجد بجانبه من يحميه، وعندما يصل الأمر إلى حد التحقيق وهذا نادرًا ما يحدث نجد المُعَلم هو المخطئ وهو الذى استفَز التلميذ، ولا مفر من عقاب رادع ينزل به خاصة إذا استطاع ولى الأمر أن يصل إلى وسائل الإعلام وخاصة الصحافة.

فى وسط هذا الحديث يجدر أن أشيد بك فى مواجهة سطوة الإعلام الذى تَعَوّد على الوصاية على الوزارة وإرهاب رجالها، ولم يجد من يوقفه عند حده، ولم يفطن أحد من السابقين أن ذلك يثير البلبلة، ويشحن الرأى العام، ويتدخل فيما لا يعنيه، ولا يفهم فيه، ولكنك بموقفك الأخير أخرست الألسنة، وأغلقت الباب فى وجه الجهلة ومثيرى الفتن، وتأليب الناس ضد الوزارة.

- الحمد لله أنك وجدت شيئًا تشكرنى عليه، ولكن بصراحة لا أعرف هذا الشىء.... أرجو أن تُذَكّرنى به.

- فى اليوم التالى لامتحان اللغة الانجليزية فى الثانوية العامة.... ظهرت بعض الصحف تحمل صور بعض التلاميذ وهم يبكون من صعوبة الامتحان، وسرت إشاعة فى البلد كلها أن الامتحان صعب حتى صدّقها الناس من التكرار والإلحاح ومشاركة القنوات الفضائية الباحثة عن أى إثارة، وتحدّث أولياء الأمور أن الامتحان صعب، وأغلبهم من أنصاف المُتَعَلّمين، ولا يعرفون أن يقرأوا سطرًا واحدًا من الامتحان،

وأنهم انساقوا وراء أولادهم الخائبين الذين يبحثون عن مُبررات لخيبتهم!

- بصراحة أصابتنى الدهشة لتناول الإعلام لهذا الأمر حتى كدت أن أُصَدّقه، وبسرعة طلبت استطلاع الأمر والتأكد منه.

- طَلَبته من الخبراء والمُتَخصصين.

- طبعًا... وأجمعوا بعد مراجعة الامتحان و إجابات الطلاب.... أن الامتحان عادى ولا يحمل أى صعوبة، ونسبة نجاح العينات تجاوزت التسعين فى المائة، وأن الامتحان يوضع ليقيس كل المستويات وفيه بالطبع أسئلة لقياس المُستوى المُرتفع، وهنا يُمكن أن تأتى الشكوى من التلميذ العادى أو المُتوسّط، وهى شكاوى فى غير محلّها!

- أعجبنى تصريحك بأنه لا يجب أن يتناول موضوع الامتحانات إلا المتَخصصون، وغير مسموح لأى شخص غير مُتَخصص أن يتحدث فيه.

الحقيقة أن هذا اتجاه محمود..... رأينا فى الماضى وزيرًا اشتهر عنه إفساد التعليم.... اختَرَع مكافأة يعطيها لواضعى امتحانات الثانوية العامة الذين لا يشكو الطلاب من امتحاناتهم..... وطبعًا كان هذا إغراء مفضوح لوضع امتحانات سهلة يتساوى فى إجاباتها الضعيف والممتاز!... وانتفى الغرض الرئيسى من الامتحانات وفى نفس الوقت كان يُعاقب واضعى الامتحانات الذين يشتكى منها الضّعاف والمتخلّفين والذين يُجيدون البكاء واللطم أمام كاميرات التليفزيونات..... كان العقاب يشمل النقل خارج المحافظة، فضلاً عن التشهير به أمام الرأى العام.

هذه السياسة أفرزت حصول التلاميذ على مجاميع خُرافية.... تتجاوز أحيانًا المائة فى المائة، بل رأينا تلاميذ حصلوا على ١٠٥٪، وكان هذا الوضع المأساوى مثارًا للسخرية والاستهزاء..... فكيف يكون المقام مائة والبسط مائة وخمسة!!

أخطر ما فى العملية التعليمية هو انعدام الثقة بين عناصرها، وتربص كل عنصر بالعناصر الأخرى، لم يعد البيت يثق فى المدرسة والمُعَلّم، والمدرسة أصبحت تُعانى من النقد والتطاول والتحقير، والتدخّل فى شئونها من أولياء الأمور، وأصبحت الجُرأة على المدرسة سمة الجهلة والمُتَعَلّمين، ولم يَعد يَنظر إلى المدرسة كمكان راقى للتربية وتعليم الأخلاق، ولم يَعُد يُنظر إلى المُعلّم بهيبة واحترام، والضحايا هم الأبناء الذين يخرجون إلى المجتمع ينفثون فيه سموم التربية الفاسدة..... الغش... الخداع... الكذب.... إهدار الوقت... عدم تقديس العمل... تحقير العلم والعلماء.... عدم احترام الكبير....

الاستهانة بالذنب.... محاربة المُجدين وحسد الناجحين، والرشوة والمحسوبية، وتوزيع المناصب على الأقارب وانعدام الضمير.... نسمع عن تزوير الشهادات الدراسية وسرقة رسائل الدكتوراه وسرقة الأبحاث العلمية، وانهيار المبانى الحديثة، وأقربها مستشفى الأورام، وسرقة الأراضى، والهرب بأموال البنوك، الرشوة التى أصبحت من أساسيات الحياة فى المجتمع.... مفاسد كثيرة وأمراض خبيثة وأخلاق رديئة عفنة، وسوس ينخر فى عظام الوطن.... كل ذلك من نتاج التعليم الفاسد.

يحضرنى قول أمير الشعراء يُنَبّهنا إلى سوء العاقبة:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

- هذا صحيح... ولكن هذه الأمراض التى أشرت إليها تحتاج إلى وقت طويل لكى نُعالجها، ونحن جادون فى تنفيذ استراتيجية شاملة لمعالجة كل مشاكل التعليم.

- إذا عزمت فابدأ وتوكّل على الله.... ولتكن البداية التأكيد على أهمية الدين لأنه الأساس.... مع تحديد مواطن الخلل كما يُحَدده الخبراء، واستعادة الفاعلية، والعمل على بعث الأمة من جديد، وإعادة بناء سياجها الأخلاقى، والتأكيد على إحياء مبدأ الثواب والعقاب، وتأكيد قيمة العدل فى حياتنا، واحترام القوانين التى نضعها، ونساوى فى تطبيقها بين الجميع.

إننا فى حاجة ماسة لجعل التعليم مشروع قومى يشارك فى تنفيذه كل عناصر المُجتمع، ونجعل الخبراء يتقدمون الصفوف، ويبتعد الأوصياء لوجه الله ولصالح الوطن، ونُفسح المكان لكل ذى فكر بَنّاء.... مُخلص لوطنه ودينه، وأن نسرع بعمل ميثاق يتفق الجميع على تنفيذه.

- تقصد استراتيجية شاملة.

- لا تهم التسمية.... المهم العمل الجاد والاستمرار فيه.... ليَكُن اسمها ورقة.... نحدد فيها كل السلبيات بصراحة.... نبدأ بأقل الأشياء، ونتناول كل العناصر الفاعلة.... المدرسة... التلميذ... المُعَلّم.... المناهج.... القوانين.... وضع سياسة واضحة للعقاب كما توجد سياسة واضحة للثواب.... كل شىء يُطْرَح بصراحة أمام المجتمع ليكون مُشاركًا فى الرأى والتنفيذ.... ويكون كل علاج قابل للتنفيذ..... بل نذكر آلية تنفيذه، ولا تكون مُجَرّد شعارات نكتبها فى لوحات مُلَوّنة نُعَلّقها على الحوائط..... مُجرد شعارات وكلمات تنال من السخرية أكثر مما تنال من الاستحسان

يجب أن نهدف إلى تعليم يُنَمّى خصائص الإنسان، ويكون سبيلاً إلى الارتقاء، وتحقيق الانسجام مع مُكَوّنات الحياة، والارتقاء بوسائل الإنسان وأدواته وإبداعاته، ولن يتحقق ذلك إلا بالتربية الصالحة..... هل يُمكن تصوّر أن تنمو خصائص الإنسان العليا، وتتنوع إبداعاته، ومشاركته فى نهوض مُجْتَمعه، وأن تكون الوسائل المُستَخدمة مُتدنّية أو مُتَخَلّفة؟!

- أعتقد أن الأمور واضحة، والرسالة قد وصلت!

obeikandl.com

obeikandl.com

(١٧)

مُعظَم النّار.....

أيام الوزير إياه..... الذى أفسد التعليم..... كانت أبواب مكتبه مفتوحة لأولياء الأمور على مصراعيها يسمع منهم ويتصرف ويُصدر القرارات لما يُرضيهم، وهم دائمًا على حق فى نظره!.... كان يُعطى تليفوناته لهم ليبلغوه بأى شكوى ضد المُعَلّمين الأعداء، وكانت شكاواهم بالنسبة له حقائق..... ولى الأمر هو الملاك الصادق الذى لا يكذب ولا يفترى ولا ينطق عن الباطل والهوى، والمعلّمون والمديرون هم الشياطين الذين يملأون الدنيا فسادًا وجَوْرًا وأسباب كل النكبات!!

obeikandl.com

- عن ماذا تريد أن نتحدّث اليوم؟

- أعتقد أننا لم نتحدّث بعد عن علاقة ولى الأمر بالمدرسة.

- وهل يوجد ما نتحدّث عنه فى هذا الموضوع؟

- طبعًا.... أنت نفسك حدّثتنى فى لقاء سابق عن واقعة شهدتها بنفسك، ووجدت بعض أولياء الأمور يعتدون على مدرّسة فى الفصل، ولولا وجودك لازدادت الأمور سوءًا!

- كان شيئًا مؤسفًا لم أتخيل يومًا أن أراه!.... ولكنى وقتها تصرّفت بما يجب أن يكون، وبما يحفظ للمدرسة هيبتها، وللمعلّم كرامته.

- هذا لأنك كنت موجودًا، وأنك الوزير، ولو لم تكن موجودًا لانتهى الأمر إلى مأساة وملهاة..... أصبح أولياء الأمور يُؤدبون المُعلّمين أمام أعين أبنائهم.

- لن أسمح بذلك أبدًا..... كرامة المُعلّم من كرامة الوزير والوزارة.

- هذا هو المفروض، ولكن الواقع يتحدث بغير ذلك، ويفرض نفسه.... ولى الأمر أصبح قوة ضغط هائلة، ويستوى فى ذلك الجاهل والمُتعلّم!

أيام الوزير إياه الذى أفسد التعليم كانت أبواب مكتبه مفتوحة لأولياء الأمور على مصراعيها يسمع منهم ويتصرف ويُصدر القرارات لما يُرضيهم، وهم دائمًا على حق فى نظره!.... كان يُعطى تليفوناته لهم ليبلغوه بأى شكوى ضد المُعلّمين الأعداء، وكانت شكاواهم بالنسبة له حقائق..... ولى الأمر هو الملاك الصادق الذى لا يكذب ولا يفترى ولا ينطق عن الباطل والهوى، والمعلّم والمدير هم الشياطين الذين يملأون الدنيا فسادًا وجَوْرًا..... المُعلّم أصبح أضعف حلقة فى حلقات التعليم..... هو دائمًا الضحية التى يجب ذبحها والخلاص منها لخطورته على الاقتصاد والجنيه وأزمة الخبز!

طبعًا سمعت عن اعتداء أولياء الأمور على مديرى المدارس، ومن شهور قليلة حملت الأنباء السوداء عن ولى أمر اعتدى على مدير المدرسة بالضرب، وقلّب المكتب وحطم الأثاث!.... وانتهت التحقيقات إلى تبرئة ولى الأمر وإدانة المدير المسكين!

- هذا غير معقول!

- معقول فى هذا الزمن الردىء..... كانت المدرسة زمان لها قُدسية واحترام..... يدخلها

ولى الأمر وكأنه يدخل دار عبادة لأنه كان يعرف قيمتها، وفى قلبه التبجيل والاحترام لمن يعملون فيها، وعندما دخلت السياسة فى التعليم، ورغبة الأوصياء فى كسب وُد الناس، وتهدأة ثوراتهم على سوء الحال، وإلصاق سوء الأداء الحكومى على شماعة الكذب والبُهتان.... فكان المُعلّم هو الشماعة والضحية، وتحميله كل الأوزار، وحلال التنكيل به والتشهير، وتحريض الناس ووسائل الإعلام عليه..... فزالت الهيبة من القلوب، وانتهك حُرْمَة المدرسة ومن فيها..... الكبير والصغير والجاهل والمُتعلّم والسوقة والدهماء حتى وصل الأمر إلى أبعد مدى وهو تأديب المُعلّمين والمديرين، وكل يوم نسمع عن مهازل ومخازى وفضائح!

- هذا كثير.... صدّقنى.... لن أسمح بذلك أبدًا!

- ليس بالكلام فقط، ولكن بالفعل.

- طبعًا..... ولكن ماذا تقترح؟

- أقترح من واقع خبرتى، وتجربتى عندما كنت مدير مدرسة.

- عظيم.... فلتحك لى تجربتك.

- هى ليست بالاختراع الصعب تنفيذه..... هو شىء خاص بوضع نظام يَحْتَرمه الجميع، وتُصر الإدارة على تنفيذه..... نظام يُحَدد اتصال ولى الأمر بالمدرسة، وتحديد أوقات مُحَددة فى الأسبوع لكل صَف، إلا إذا كان هناك أمر جلل يستدعى زيارة ولى الأمر للمدرسة فى أى وقت!

- هذا شىء سهل، ويُمْكن تنفيذه.

- هو سهل لو أتْقَنّا التنفيذ، وأخْلَصْنا فيه، الأمر سهل، ولكن بشرط أن نعهد الأمر على البوابة لرجل أمن مُتَخصص ومُحْتَرف.... يكون ذلك عملَه ومسئول عنه، ويعرف واجباته جيّدًا، ويُنفذ التعليمات بدقة، وأن يتأكد من شخصية الزائر من واقع بطاقته الشخصية، ويُسَجل بياناتها فى سجل الزيارات، وأن يُوَقع ولى الأمر أمام وقت الحضور وأن يوضح سبب الزيارة.

مثلاً إذا جاء ولى الأمر إلى المدرسة لا يُسمح له بلقاء المُعلّم، ويكون لقاؤه بالمشرف العام أو الاخصائى الاجتماعى أو مدير المدرسة، وأن يصحبه رجل الأمن إلى حيث يريد.

المشكلة التى تُسَبب حالات الانفلات التى نسمع عنها.... أن ولى الأمر يأتى إلى

المدرسة..... ربما يكون مشحونًا بموضوع ما مع مدرس مُعَين..... يأتى إلى المدرسة.... يُوَقّع فى دفتر الأمن.... يدخل وحيدًا إلى داخل المدرسة.... يسأل عن الأستاذ فلان.... يتوجّه إلى الفصل الذى يوجد به الأستاذ.... يستدعيه من على الباب... يترك عَمَلَه ليتحدث معه.... يتصاعد النقاش فى ظل الشحن والتجاوز، ويتحول الموضوع إلى معركة وفوضى!

لكن لو أُجبر ولى الأمر على لقاء الاخصائى أو المشرف أو المدير، وتم بحث الموضوع فى هدوء وبدون انفعال، يُمكن استيعاب الموقف ولا يتطور إلى شىء سىء.

تحديد خطوات ولى الأمر فى المدرسة شىء ضرورى لحفظ النظام وكذلك هيبة المدرسة.

دخول ولى الأمر للمدرسة يجب أن يكون مُقَنّنًا ومحسوبًا.

نشرت الجرائد من أشهر قليلة أن إحدى السيدات دخلت إلى المدرسة فى وقت "الفُسْحَة" ودخلت بدون أى مُمَانعة من الوصول إلى فناء المدرسة، واستطاعت أن تنتزع القرط الذهبى لإحدى التلميذات الصغيرات، وخرجت فى هدوء!

فَتْح البوابة وقت الفُسْحَة من أخطر الأشياء، ويُمْكن أن يتسبب ذلك فى كارثة!

وكما قُلْت لا بد أن تكون زيارة أولياء الأمور مُحَددة، وبقرار واضح وصريح من مجلس الأمناء حتى يكون له قوة، وأن توضع هذه التعليمات فى لوحة كبيرة واضحة بالقرب من بوابة المدرسة.

- هذه فكرة صائبة.... سوف أُناقش هذه الأمور فى اجتماع قريب بإذن الله.

- على خيرة الله..... أنا أعرف أنها أمور صغيرة، ولكن معظم النّار من مُستَصْغر الشرر!

(١٨)

مصابيح النور

العلماء يحاولون إخضاع التسابق المحموم فى مجال البحث العلمى والإنجاز التكنولوجى لقيود صارمة..... لقد ظهر هذا المطلب بشدة عندما ظهرت مشكلة الاستنساخ فى البشر أيام النعجة "دوللى"..... والمعارضة الشديدة وقتها لاستنساخ البشر لأن ذلك من شأنه ان يقلب النظام الاجتماعى البشرى، ويُفْقده أهم المزايا التى من أجلها خلقه الله ﷻ.

obeikandl.com

- كان أول أمر إلهى.... قُرآنى.... للرسول الكريم ﷺ "اقْرَأ"..... ذلك لأن القراءة هى مصابيح النور والمعرفة والعلم.

- هذا صحيح... من فترة بسيطة قرأت بالصدفة مقالاً كتبته الروائية "فرجينيا وولف" تقول فيه "إنه لن يُثير دهشتنا بحال أن نكتشف يوم الحساب فى العالم الآخر التى تُهتَك فيه الأسرار، وتتقشع الغيوم عن الأمور الغامضة أن الدافع الحقيقى وراء خروج الإنسان من سَكَن الكهوف، ونَبْذه القوس والسّهم، وجلوسه للتسامر حول النار، وتشييده للبيوت، والمُجتَمَعات على الأرض الخراب فى كل أنحاء العالم لم يَكُن سوى الوصول إلى القراءة"

- هذه الكاتبة غادرت عالمنا قبل أن تشهد التراجع الخطير للقراءة، وأن الإنسان المُثقّف فى سبيله إلى الاختفاء!

- عاشت الكاتبة الشهيرة فى وقت الاهتمام بالقراءة، والحرص على اقتناء الكُتُب، وأن ذلك كان يُعتَبَر مظْهَرًا للرُقى الذهنى والاجتماعى، ومثارًا للزهو والفخر والتباهى، وبخاصة بين العائلات العريقة فى كثير من الدول.

- الحرص على اقتناء الكتب ما زال موجودًا لدى بعض الأسر والمثقفين بالرغم من شحوب المناخ الثقافى، وانصراف الغالبية عن القراءة لهدف المُتعة الذهنية والثقافية.

- المسئول فى رأى البعض عن هذا الحال هو شاشات السينما والتليفزيون، والكمبيوتر.

- هذا صحيح إلى حد كبير.... الأجيال الجديده أصبح عندها بدائل تُغنيهم عن القراءة، فضلاً عن رخص ثمنها، وسهولة الحصول عليها خاصّة فى المُجتَمَعات الفقيرة التى لا تقدر على شراء النصوص المطبوعة التى تُشَجّع على القراءة حتى ولو بفرض وجود أعداد من المتُعَلّمين فى هذه البيئات تتوفّر لديهم الرغبة والقُدرة والإرادة للقراءة الحُرّة البعيدة عن احتياجات الحياة اليومية.

- يَحْضرنى قول الكاتب النيجيرى "وول سونيكا" الحائز على جائزة نوبل..... أنه للأسف ينتمى إلى جيل ضائع لأنه جيل يعتقد أنه كتب كثيرًا، ولكنه لا يجد له ما يكفى من القراءة"!

- على العموم... لا يجب أن يدفعنا ذلك إلى اليأس.... توجد جهود كبيرة ومتواصلة لنشر ثقافة القراءة فى كل أنحاء العالم، وإنفاق أموال طائلة على مشاريع نشر عادة القراءة بين مُختَلَف فئات العُمْر.

- أنا أعرف أن هذه الجهود تهتم بالدرجة الأولى بتنشئة الأطفال منذ الصغر على حُب القراءة والإقبال عليها بحيث تُصبح عادة تُلازمهم طيلة حياتهم، وعنصرًا أساسيًّا فى تكوينهم الذهنى والاجتماعى العام ومطلبًا أساسيًّا فى حياتهم اليومية، وأن هذه القراءة تُمَكّنهم من الحصول على العلم الذى يُمْكن أن يروا فيه أثمن ما يُمكن الحصول عليه، ويقول كاتبنا المُبْدع خالد محمد خالد رحمه الله رحمة واسعة "المُطالعة الحُرّة هى التى تُثقّف الطفل، وتُعْطيه زاده الذى لا ينفذ ولا يُنْسى من العلم والمعرفة والإيمان."

وللسيدة الفاضلة سوزان مبارك جهد عظيم فى هذا الشأن منذ أن أطلقت دعوتها الكريمة بأن الحق فى القراءة مثل الحق فى التعليم، والحق فى الصحّة بل الحق فى الحياة نفسها.

ولاشك أن القارئ المصرى ينتظر كل عام مهرجان القراءة للجميع.

وتقول أيضًا السيدة سوزان مبارك:

"ستظل القراءة هى المظلّة الرئيسية للبناء الروحى والفكرى والوجدانى للإنسان، والثقافة هى بكل المقاييس أفضل استثمار لبناء مجتمع المُستقبل، و"ثقافة السلام" هى الضمان الأكيد لإرساء دعائم الأمن والسلام الاجتماعى والتسامح ومكافحة العنف، ونشر العلم والمحبّة والإخاء والديموقراطية والتواصل مع الحضارات الأخرى"

- يقول المولى ﷻ فى كتابه الكريم فى سورة المجادلة مبينًا فضل العلم والعلماء ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ صدق الله العظيم

ويقول الرسول الكريم ﷺ فى فضل العلم "من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سَهّلَ الله له طريقًا إلى الجَنّة"

والإمام أحمد رحمه الله له قول فى ذلك، فيقول "الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب، لأن الرجل يحتاج إلى الطعام مرة أو مرتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه، وأول طريق العلم هو إتقان القراءة..... واشتغال الناس بالعلم من أفضل الطاعات، وأعظم القُربات أو هو عبادة من العبادات"

وأنا أرى أننا متفقان على أهمية القراءة لتحصيل العلم، ولكن تقنيات العلم الحديث جعلت للعلم طرائق أخرى للتحصيل غير القراءة، وهذا يُمَثل خطرًا عظيمًا على القراءة، وأن زحف وسائل الاتصال الحديثة بقوة طاردة جَبّارة وسهولة الحصول منها على المعلومات أصبح يُمَثل تهديدًا بجعل القراءة على هامش النشاط اليومى بل إلى هامش

الحياة ككل، وتوجد بالفعل شكوى قوية حول مُستَقبل ثقافة القراءة القديمة.

- أنا لا أرى الصورة قاتمة ومُزعجة كما تراها، فما زالت ثقافة القراءة القديمة التى تُشير إليها تؤلف سمة من سمات المُجتَمَع المُعاصر، وأن الكلمة المقروءة لا تزال تلعب دورًا كبيرًا فى حياتنا، وفى تشكيل تفكيرنا..... الدور نفسه الذى كانت تقوم به حتى عُقود قليلة مضت.

- ولكن من يضمن الاستمرار؟

- ترسيخ الإيمان بكل الوسائل المُتاحة بأهمية القراءة الحُرّة، وأنه لا غنى عنها فى تكوين فرد راقى... مُستَنير... مُتَفَتّح، وأن له دور إيجابى فى المُجتَمَع، وعنده إيمان راسخ بأن العلم الذى يأتى عبر الشاشات هو فى الأصل إبداع إنسانى لعلماء قرأوا وبحثوا وفكّروا واخترعوا.

- الخطر ليس فيما ذكرت، ولكنه يكمن فى القفزات السريعة للتكنولوجيا والعلم والأبحاث..... قفزات تصيب العقل بالدهشة والفزع والارتباك.....

إن الخبراء يرون أن التغيرات التكنولوجية وأثرها على مُستَقبل الجنس البشرى خلال القرن الحالى (الواحد والعشرين) سوف توازى ما قد عساه أن تحدث خلال أكثر من عشرين ألف سنة بمعدّلات سُرْعة التَغَيّر الحالية، وبمعدلات حجم التقدم الذى تم إحرازه خلال القرن المُنصرم (العشرين)، وأن هذا التقدم، وتلك التحوّلات المفاجئة والفادحة بكل المعايير سوف تصيب الإنسان بالصدمة والذهول!

- لذلك العلماء يحاولون إخضاع التسابق المحموم فى مجال البحث العلمى والإنجاز التكنولوجى لقيود صارمة..... لقد ظهر هذا المطلب بشدة عندما ظهرت مشكلة الاستنساخ فى البشر أيام النعجة "دوللى"..... والمعارضة الشديدة وقتها لاستنساخ البشر لأن ذلك من شأنه أن يقلب النظام الاجتماعى البشرى، ويُفْقده أهم المزايا التى من أجلها خلقه الله ﷻ.

- ولكن من يضمن ذلك فى المستقبل؟..... من يضمن أن يوقِف مارد التقدم العلمى والتكنولوجى من أن يسحق الإنسان نفسه تحت أقدامه الغليظة..... لا أحد؟!

ولكن عندى سؤال أهم..... أين نحن وسط هذا السباق المحموم؟!

(١٩)

أمراض مُسْتَعْصية.....!

لكل ما ذكرته..... أسبابه المُتوارثة.... التى تراكمت مع مرور الوقت حتى أصبحت أمراض مُسْتَعْصية لا تنفع فيها المُسَكّنات، وأصبح إغفال مواجهتها عن طريق التعليم الجيد يُهَدد سلامة الوطن مما حدا برئيس الجمهورية أن يقول إن التعليم أصبح مسألة أمن قومى.

obeikandl.com

- ماذا تريد أن تتحدّث اليوم؟

- عن العلم كفريضة..... الرسول ﷺ فى حديث صحيح يقول فيه "طلب العلم فريضة على كل مُسْلم ومسلمة"

- علّمه شديد القوى.... يقول الصدق ويهدى إلى الحق..... بالعلم تنتشر الأخلاق الفاضلة، وبه تزدهر الأمة وتبلغ المكانة العالية.

جعله الرسول فى مرتبة الفريضة الواجبة، والرسول يقصد به العلم المُرْتبط بالأخلاق، والذى يؤدى إلى تحسين سلوكيات الناس لارتباطه بمرضاة الله تعالى..... فلا نجد الخمول والكسل والغش والخداع والكذب والسلب والنهب وأكل الأموال بالباطل، وأخذ ما ليس حَقًا، والرياء والمحسوبية، وتوريث المناصب، وتجاهل الكفاءات وإبعادهم والكيد لهم، وتولية المناصب والمراكز للجهلة والنصّابين، وتفشى الأمية والجهل والأمراض واستنزاف الثروات وغير ذلك كثير.

- هذا قولك يا سيدى وأنت من أهل الحكومة..... فلماذا نجد كل ما ذكرته فى مجتمعنا وأكثر منه؟!

- لكل ما ذكرته أسبابه المُتوارثة، والتى تراكمت مع مرور الوقت حتى أصبحت أمراض مُسْتَعْصية لا تنفع فيها المُسَكّنات، وأصبح إغفال مواجهتها عن طريق التعليم الجيد يُهَدد سلامة الوطن مما حدا برئيس الجمهورية أن يقول إن التعليم أصبح مسألة أمن قومى.

- الخبراء يؤكدون أيضًا أنه أصبح مسألة مُتَعَلّقة بالتنمية..... التنمية بكل أشكالها..... أرى تساؤلاً يلوح على وجهك.... أليس الهدف من التنمية هو تحسين حياة البشر، والازدياد من ذلك على حسب قدرات الناس وعزائم كل فرد، وعلى قدر أهل العزم تكون التنمية.

التنمية كما يؤكد الخبراء فى حقيقتها هى عملية حضارية لكونها تشمل مُخْتَلَف أوجه النشاط فى المجتمع بما يحقق رفاهية الإنسان وكرامته، وهى أيضًا بناء للإنسان وتحرير له وتطوير لكفاءاته وإطلاق لقدراته، كما أنها اكتشاف لموارد المجتمع وتنميتها وحُسن تسخيرها بحيث تعود بالنفع على المجتمعات الإنسانية، دون المساس بسعادتها وأمنها.

والتنمية لا يُقصد ضرورتها لدول العالم الثالث، ولكنها تمتد بمفهومها للشعوب التى حققت تطورًا وازدهارًا وشهدت نهضة كبيرة فى عصرنا وهى بالطبع دول العالم الغربى التى تسعى دائمًا إلى المزيد، وتعمل على التفوّق والمحافظة على وسائلها للتنمية وحجبها عن الآخرين!

لذلك فإننا فى حاجة مُلحّة للأخذ بأسباب التنمية الحقيقية، وتوفير وسائلها، ولن يتحقق ذلك بالقطع إلا بالتعليم الجيد.... بالتعليم الحقيقى وليس المظهرى!

التعليم الذى يُحَقق العلم والارتقاء بكل جوانب الإنسان، وليس الذى يُحَقق المعلومات العلمية فقط، أو الذى يُسَمّى بالارتقاء المادى أو التنمية المادية أو الاقتصادية كما هو الحال فى الفكر الغربى، ولكن ما أقصده هو تنمية كل جوانب الإنسان المادية (الجسدية) والروحية حتى تتحقق سعادة الإنسان التى هى الهدف الطبيعى من استخلافنا للأرض وللأمانة التى وضعها الله فى يد الإنسان.

نحن بين الحين والحين نقرأ ونسمع عن حدوث حالات انتحار فى بعض المجتمعات الغربية التى صبّت اهتمامها على النواحى المادية للإنسان، وأهملت جانبه الروحى!

قطعًا الإنسان الذى ينتحر ليس إنسانًا سعيدًا، لأن السعادة لا تتحقق للإنسان إذا كان فى يده كل رفاهيات المادة، وروحه خاوية!

لذلك لا يجب إغفال تنمية الجانب الروحى للإنسان عند القيام بعملية التنمية، وأن نكون على يقظة تامّة لمحاولات الغرب المُسْتَميتة أن يُفْقدنا هويتنا اللغوية والدينية والحضارية، وأن يَجُرّنا للدوران فى فلكه، ونحن نسمع ونقرأ ونرى بأعيننا محاولاته للتدخل فى مُعْتَقداتنا والمساس بديننا، والنيل من الثوابت الدينية التى يرتكز عليها مجتمعنا.

- يعنى تقصد أن عملية التنمية التى تتحدّث عنها تأخذ ما فى يد الغرب من أسباب العلم والتقدم المادّى مع الحفاظ على ما فى أيدينا من عوامل الحضارة من لغة ودين وعادات وتقاليد.

- هذا ما أقصده فعلاً.... ذلك ضرورى حتى لا نتوه ونُصبح مُجَرّد تابعين ندور فى فلك الغرب، ولن نستطيع أبدًا أن نُحقق أى شهود حضارى، وذلك ما يؤكّده الواقع الذى نعيشه عندما حصرنا التنمية فى بلادنا العربية فى المجال الاقتصادى لم يجعلنا ذلك إلا مُجَرّد تابعين! رغم توافر الأموال والموارد الطبيعية.

- يمكننى أن أستشعر أنك ترى ضرورة تحقيق التنمية المنشودة من منظور إسلامى..... أليس كذلك؟

- هذا حقيقى.... التنمية من منظور إسلامى تنسجم مع النظرة الإسلامية للكون والحياة والإنسان، فضلاً عن استيعاب مجالات التنمية جميعها بعيدًا عن أى تأثيرات غريبة على تعاليم الإسلام.

- هذا يدفعنى للسؤال عن خصائص هذه التنمية التى نُسَمّيها "تنمية إسلامية"

- هى خصائص كثيرة ومميّزَة، ويُمكن تلخيصها فى نقاط مُحَددة..... أولها التطوّر والتغيير.

- التطوّر والتغيير.... ماذا تقصد بهما؟

- نحن اتفقنا فى بداية الحديث أن التنمية هدفها الأساسى تطوير وتَغْيِيّر حياة الإنسان إلى الأحسن والأرقى، لذلك فإن من أهم الخصائص فى التنمية هى تحقيقها للتقدم والرقى والتَحَسّن، ولكن لا بد من مراعاة قُدرات الأفراد انطلاقًا للمقولة التى تقول "كلّ خُلق لما هو مُيَسّر له" وحتى لا يُكَلّف الناس بأكثر من وسعهم فتفشل العملية، مع التأكيد على أن يُصاحب ذلك التغيير من الأحسن فالأحسن.

- طبيعى.... وما هى العناصر الأخرى؟

- تحقيق الاستمرارية..... إن أكثر ما عانينا منه فى عالمنا الإسلامى والعربى.... عندما كانت لنا حضارة زاهرة.... أننا توقّفنا لأسباب مختلفة ليست خافية، وبدأنا نتراجع طويلاً، ولم تتواصل حضارتنا جيلاً بعد جيل!

ثالثًا.... الشمولية.... أى مُراعاة قُدرات الإنسان وإمكانياته المُختلفة سواء كانت مادية أو معنوية (روحية، نفسية، عقلية) فلا يصح الاهتمام بالجوانب المادّية فقط وإغفال القيم المعنوية والمُجتَمَعيّة.

رابعًا..... هو الوعى بمقصود الشارع من الاستخلاف..... أى يكون للإنسان هدف يَسْعى إليه، وهو بالقطع تحقيق هدف مادّى، وفى نفس الوقت لا بد من تواجد الدافع الدينى أو العَقَدى حتى يكون حافزًا له للعمل وبَذل الجهد.

من المؤكد أنه كلما كان الإنسان واعيًا ومُستَحْضرًا لذلك الدافع الدينى أو العَقَدى كلّما كان جهده أكثر، وعمله أفضل.

ما أحوج المسلمين اليوم لاستعادة الوعى الذى كان عليه الجيل الأول الذى قام بالتنمية، وأقام حضارة شامخة، وقام بمهمة الاستخلاف خير قيام، وهو الوعى الذى قَرَن العلم بالعمل، فإذا تَجَرّد الوعى من العمل كما هو حالنا فى العالم العربى والإسلامى اليوم فلا يتحقق المُراد.

- تقصد أن الاستخلاف لا بد أن يقترن بالعمل والتكليف.

- هذا صحيح... ولننظر قول الحق فى كتابه الكريم فى سورة يونس ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾..... صدق الله العظيم

- صدق الله العظيم.... ثم بعد؟

- تقصد خامسًا..... خامسًا..... الرعاية

- ماذا تقصد بالرعاية؟

- الرعاية هنا تعْنى التخطيط والتنظيم، وهذا من واجبات أولى الأمر الذين يتبنون المشروع التنموى والسهر على تنفيذه، وأن يكون تحت رعايتهم بما يمتلكونه من أجهزة ومؤسسات تتيح عملية الإشراف والمتابعة والتنسيق والتنفيذ حتى تتحقق النهضة الحضارية المنشودة.

- هذا بالقطع يتطلّب التعاون بين كل الأجهزة وبين الناس.

- هذه هى الخاصّية السادسة بالفعل..... التعاون والتكامل.... لأن كل إقليم له طاقات يمتلكها..... هذه منطقة زراعية، وتلك منطقة صناعية، وهذه مناطق بها بترول، وغيرها مناطق بها معادن، وهكذا كل إقليم يجب أن يعمل على تنمية طاقاته، ثم يتجاوز ذلك إلى التعاون والتكامل مع المناطق الأخرى.

هذا هو المفروض أن يحدث فى عالمنا العربى والإسلامى..... أى يكون بين دولها تكامل أُممى، لأن كل إقليم له خصوصيات يتميز بها عن غيره كما أن له نقائص.

- هذا هو ما قصدته من كلامى..... أن نتعاون ونتكامل، وفى نفس الوقت يكون هذا التكامل مُنْسجمًا مع تُراثنا الدينى والمعرفى، وأن تكون تنميتنا مُسْتَقلّة نعتمد فيها على ذاتنا وأن نستخدم ثرواتنا فى ظل تعاون واع..... يقظ يقينا شر التبعية.

- هذا صحيح.... إن التاريخ يؤكد أن الأمم قديمًا وحديثًا حقّقت شهودها الحضارى بالاعتماد على ذاتها من خلال ما حقّقَته من استقلالية فى التنمية.

- عندنا أمثلة حية تؤكد ما أقول..... اليابان حققت التحديث والتطوير لمجتمعها، وفى نفس الوقت احتفظت بثقافتها الخاصّة ومُعْتقداتها ولغتها.

هذا ما أردت أن أُوضّحَه.... بضرورة حدوث التنمية من داخلنا حتى نتخلّص من أنياب التَخَلّف الذى نعيشه، ونهرب من شباك التبعية البغيضة.

obeikandl.com

(٢٠)

التعليم الذاتى..... ضرورة.

يجب أن يُصاحب التعليم جهود كبيرة لإدخال الثقافة فى الأنشطة المدرسية حتى تتكامل المعرفة، ونتيح للعقل أن يُحلّق خارج حدود المناهج الدراسية، وأن يتحرر من قيودها ليشارك بالفكر والبحث والتحليل والإبداع مُشاركة إيجابية فى فهم مشاكل المجتمع المُحيطة والعمل على حَلّها.

obeikandl.com

- أرجو أن تسمح لى بمواصلة الحديث عن التعليم والعلم.

- لا بأس.... أذكر أننا تحدثنا فى لقاء سابق عن أهميتهما كمدخل ضرورى للتنمية، ونقطة انطلاق ضرورية للتخلّص من الأزمات التى نعانى منها.

- هذا صحيح.... خلصنا من هذا اللقاء أنه من الضرورى العناية الفائقة بأمر التعليم وتنميته قبل غيره من مجالات التنمية الأخرى، لأنه المحور الأساسى للتنمية والنهوض الحضارى، وإذا ما أرادت أُمّة التقدّم والازدهار فلا بد أن تتخذ التعليم نُقْطَة انطلاق.

- هذا ما يُؤكّده تاريخ الأمم قديمها وحديثها.... أن تَحَضّرها ورُقيّها كان مُرْتبطًا بالتعليم ارتباطًا وثيقًا، كما أن تَخَلّفها وانحطاطها كان مُرْتَبطًا بالجهل ارتباطًا وطيدًا.

- هذا صحيح..... وعندى أمثلة كثيرة..... أذكر أننا تَكَلّمْنا عن تحذير الرسول ﷺ لنا من الوصول بأيدينا وغفلتنا إلى مرحلة "القَصْعَة" وهى بالفعل ذات المرحلة التى نعيشها اليوم، ولا مخرج لنا إلا بالاهتمام بالتعليم، والاهتمام بالثقافة..... كلاهما له رسالة تنويرية، وكل منهما يهدف إلى رفع قيمة العقل والتفكير.

لذلك يجب أن يُصاحب التعليم جهود كبيرة إلى إدخال الثقافة فى الأنشطة المدرسية حتى تتكامل المعرفة، ونتيح للعقل أن يُحلّق خارج حدود المناهج الدراسية، وأن يتحرر من قيودها ليشارك بالفكر والبحث والتحليل والإبداع مُشاركة إيجابية فى فهم مشاكل المجتمع المُحيطة والعمل على حلّها.

- لاشك أن الثقافة من روافدها المتعددة تعمل على تنمية القدرات الإبداعية لدى التلاميذ.

- يجب أن يكون ذلك هدفًا رئيسيًا الآن وفى المستقبل أيضًا.... أى العمل على تدريب التلاميذ منذ الطفولة على المُشاركة الإيجابية بإيجاد حلول لما يواجه المُجْتَمَع من مشكلات وأزمات، وأن يتعلّموا التعاون سويًا لتنفيذ مَهام مُحَددة يُكَلّفون بها، ويتعلّمون كيفية التعامل معها باستخدام مهارات التفكير والبحث، ولا بأس من امتداد هذا التعاون إلى خارج حدود المدرسة بل إلى خارج حدود الوطن.

أنا فى الحقيقة أعجبتنى كلمتك خلال إطلاق مبادرة "تعالوا نتعلّم" التى قُلْت فيها "إن المبادرة تهدف إلى بناء وتنمية قُدرات الأطفال الإبداعية والوجدانية والسلوكية

واستثمارها من خلال إتاحة الفرصة التربوية الجيدة للتعليم"

وكذلك قولك "إن المُبادرة تهدف إلى تطوير مناهج التعليم الابتدائى، وطرق التدريس بهدف الانتقال من نموذج تربوى تقليدى قائم على الحفظ والتلقين إلى نموذج تربوى حديث يُدَعّم التفكير الناقد، ويُنَمّى قدرات التلاميذ على حل المشكلات"

- ذلك أصبح ضروريًا، وهدف تسعى إليه الوزارة، ولا تنسى أننى ذكرت أن هذا التطوير سيشمل دمج التكنولوجيا فى العملية التعليمية، والاستخدام الأمثل لوسائل الاتصال والشبكات الدولية، وما يُلْحَق بهما من وسائط مُتعددة.

هذه الأدوات الحديثة توَفر بيئة تعليمية تربوية صالحة، وتتيح العمل فى مشاريع تعاونية بين مدارس مُختلفة، وتُمَكّن التلاميذ من تطوير معارفهم بمواضيع تُهمّهم، وتهم مجتمعاتهم من خلال الاتصال بزملاء وخبراء لهم نفس الاهتمامات.

- شىء جميل حقًا.... لقد حكى لى أحد المُعَلّمين عن تجربة حَيّة تؤكد ما تقوله، وتُعطى مثالاً حيًا على أهمية استخدام نظم التعليم الحديثة فى تشجيع التلاميذ على إعمال العقل وشَحذ طاقات التفكير أثناء عملية التعلّم، والتخلّص من طريقة التلقين والحشو وتكبيل العقل، وتعطى الدليل على أن طرق التعلّم الحديثة تحمل المتعة، وتُغرى كل المستويات فى الفصل على المشاركة والاستفادة وتحقيق الإيجابية.

قال الأستاذ أحمد مبروك وهو معلم لمادة العلوم فى مدرسة نهضة مصر التجريبية فى إدارة ٦ أكتوبر أنه اشترك مع تلاميذه فى مشروع E. Twinning أى مشروع التوأمة مع المدارس الإيطالية..... وهو مشروع تتبناه إيطاليا مع العديد من دول العالم.

ويتم التواصل مع المدارس الإيطالية من خلال موقع إلكترونى حصل عليه المعلم من المشرف العام فى مدينة مبارك التعليمية.

هذا المشروع يقوم المشرفون عليه بطرح مشكلة ما.... تواجه العالم، ثم يقوم التلاميذ فى كلا الجانبين بالتعارف أولاً، ثم يقومون بالكتابة عن المشكلة المطروحة، وكانت المشكلة المطروحة هى مشكلة التلوث "Air Pollution" وحولها يتبادل التلاميذ على الجانبين المعلومات المكتوبة والصور والآراء المختلفة لحل المشكلة، وجهود كل دولة فى حَلّها، وذلك كلّه يتم بالاستخدام الآمن لشبكة الإنترنت.

يقول الأستاذ أحمد مبروك إنه أُصيب بالدهشة من كمية المعلومات التى كان يأتى

بها تلامذته..... حتى التلاميذ الذين كانوا يبدون متخلّفين دراسيًّا كانوا يُشاركون بإيجابية مدهشة، وحماس غير مسبوق.

تحقق الهدف المنشود، ولك أن تتصور مدى ما حصل عليه التلاميذ من معلومات وخبرات وثقافة.

هذا مثال فقط لما يُمكن أن تكون عليه مدرسة المُستَقبَل.... التعليم فيها يعتمد بدرجة كبيرة على الجهود الذاتية، وعمل البحوث والتجارب والتعاون والتعامل الإيجابى مع الآخرين لتتكامل المعارف وتتنوع التجارب، وتُصبح به مواجهة مشاكل المجتمع المَحَلّى والعالمى هدفًا للتعليم والتَعَلم والثقافة بدلاً من الهدف التقليدى وهو سكب المعلومات المحفوظة والمُعَلّبَة على ورقة الإجابة فى الامتحانات.

- أنا عندما قُلْت إنه سيتم دمج التكنولوجيا فى العملية التعليمية كنت أقصد ذلك تمامًا.... آن الأوان أن يتحَمّل التلاميذ مسئولية البحث عن المعلومات وصياغتها.
- هذا كما سبق أن ذكرت سيُنَمّى لدى التلاميذ مهارات التفكير، ويُكْسبهم فى نفس الوقت مهارات الكتابة ومهارات اللغة، والحصول على معلومات قَيّمَة فى شتى المواضيع ولمختلف المُستَويات، ويُنَمّى أيضًا القُدْرَة على الاستنباط وبناء الشخصية الاستقلالية، وأن يكون وثيق الصلة بمجتمعه ومشاكله وأدواته، وحتى عندما ينزل إلى سوق العمل لا يشعر بالغُربة والعجز فى استخدام أدوات العصر الحديثة والتقنيات المُتَقدّمة، ويكون قادرًا بما اكتسبه من مهارات أن يواجه المشكلات التى تواجهه ويتعامل معها بحرفية وقُدْرَة وثقة.

قرأت ما جاء فى تقرير التنمية البشرية الحادى عشر والذى شهد الاحتفال بإعلانه الدكتور أحمد نظيف رئيس مجلس الوزراء، وبحضور الدكتور عثمان محمد وزير التنمية الاقتصادية، وجاء فيه أن هناك كثيرًا من التحديات من بينها عدم توافق مُخرجات التعليم مع مُتَطلّبات سوق العمل، حيث يُؤدى تَكَدّس الطلاّب والعجز فى المُعَلّمين المؤهلين والمناهج التقليدية التى لا تُنَمّى القدرة على حل المُشكلات إلى تخريج شباب غير مُعَد بشكل كافى لمُتطلّبات سوق العمل فى عالم تسوده المُنافسة فى ظل العولمة.

- لهذا نحن نُسابق الزمن لمواجهة هذه التحديات، والعمل كما سبق الحديث عن ذلك بإدخال التقنيات الحديثة فى التعليم، والوزارة لها جهود كبيرة وملموسة فى هذا المجال، ولكن ما زال هناك المزيد والمزيد.

- العبرة ليست فى الأدوات والأجهزة والمعامل..... العبرة بحُسْن استخدامها، وتفعيلها والاستفادة منها فى تعليم جيد وفَعّال..... على سبيل المثال تناولنا دور المكتبة المدرسية، ودورها العظيم فى المدرسة لكونها مركز إشعاع ثقافى وحضارى، ويجب أن نهيء لها الفرصة لتحقيق الأهداف العظيمة التى ذكرناها سابقًا، ولكننا بسوء الاستخدام، وغياب الواقع الثقافى، حَوّلْنا المكتبة إلى فصل دراسى، وسلبناها دورها الرائد فى التثقيف، وكَدّسناها بكتب عقيمة لا تُشَجّع على القراءة، وبعيدة كل البُعد عن اهتمامات التلاميذ.

المكتبة للأسف ضحيّة الأوصياء الذين انحدروا برسالتها، وجَرّدوها من أسلحتها التنويرية والتثقيفية.

ومما يُلفت النظر أن النشرة التوجيهية التى تصدر من الوزارة تتحَدّث فى صفحات كثيرة منها عن أهمية المكتبة، وتُؤكد أن المكتبات لها دور مُهم فى ظل الأوضاع العالمية التى تشْهَد تَغَيّرات مُتسارعة قَلَبَت الموازين فى شَتّى مجالات الحياة رأسًا على عقب فى إطار ما يُسَمّى بالموجة الثالثة، والتى تَظهر تَجَلّياتها فى الثورة العلمية، وثورة الاتصالات والثورة التكنولوجية، وثورة المعلومات الفائقة، واتجاه التعليم إلى ضرورة تزويد الإنسان المُتَعَلّم بالقُدرات التى تُمَكّن من الحصول على المعلومات من مصادرها المُتَعَددة، وكيفية تنظيمها ثم توظيفها لأى غَرَض من الأغراض.

يجب أن نؤمن بأن المكتبة لها دور رائد فى تطوير، وتحسين العملية التعليمية حيث أنها مجال النشاط الفردى والجماعى لاكتساب المعلومات..... ما رأيك فى هذا الكلام؟

- كلام جميل ومعقول وصحيح.

- ولكنه كلام..... وما أسهل الكلام.... تحَدّثنا عن المكتبة سابقًا، وللأسف تَحَوّلَت إلى منهج وإلى درجات وإلى حصص وامتحانات تحريرية وأخرى شفهية، وأمين مكتبة ينعى حَظّه بالليل والنهار فقد هَلَكَت أصابعه من الكتابة، وتَحَوّلَت لذّة العمل إلى كآبة!!

ولسان حاله يقول:

النجدة يا سادة..... النجدة يا سادة!!

obeikandl.com

(٢١)

الكادر الهزيل.....!

يا سيدى.... هذا الكادر الذى تتحدّث عنه لم يُحَقق سوى بضعَة جُنَيهات للمُعَلّم لا تُسْمن، ولا تُغْنى من جوع، ولا تُغْنى عن الدروس الخصوصية التى تكَلّمنا سابقًا عن خطورتها على التعليم

obeikandl.com

قابلت مُعلمًا..... كان زميلاً لى فى إحدى المدارس التجريبية.... هو مُعلّم للغة العربية..... من الذين يؤمنون بأن التدريس ليس مهنة، ولكنه رسالة لها قُدسيتها وقيمتها..... ويفخر دائمًا بكونه مُعلّمًا.

كانت فرصة لأهنأه بفوز مدرسته بشهادة الضمان والجودة لأنه كان المسئول عن قيادة العمل الذى أدى إلى هذا النجاح.... شكرنى بأدبه الجَم وتواضعه الشديد، ولكنى لمحت على وجهه ابتسامة غامضة أثارت فضولى..... سألته بسرعة حتى لا أفلت الفرصة "وراءك شىء تُريد أن تقوله فى هذا الشأن..... أليس كذلك؟"

قال بصراحته المعهودة "هل تُريد الحقيقة؟!"

قُلت له فى دهشة "أكيد..... وهل ترانى أقبل غيرها"

قال وعلامات الاستياء على وجهه "هذا الموضوع من أوله إلى آخره أكذوبة كُبْرى..... بل هى ضحك على الدقون"

كان حديثه صدمة ومفاجأة.... سألته ومزيد من الدهشة يعترينى "كيف ذلك يا أخى؟

قال فى غضب "إنه فصل جديد فى مسلسل الخداع والتزييف وتجميل القبيح، وتضييع للوقت وإهدار للمال وتبديد وضياع للجهد!

سألته "ألم تكن مسئولاً عن تحقيق الجودة فى المدرسة، وكان معك فريق من المساعدين من المُعلّمين، وتلقّيتم تدريبًا مُكثفًا عن طريق الهيئة القومية لضمان جودة التعليم..... فماذا حدث؟

قال بسرعة "لا أنكر أن الهيئة قامت بدورها خير قيام، فوضعت المعايير والمؤشرات اللازمة لتقييم المُؤسسات التعليمية، وقامت بإعداد برامج التدريب اللازمة، ثم تدريب الأشخاص الذين سيقومون بتقييم المدارس ثم انتقت أفضلهم، ووفرت كل ما تحتاج إليه المدارس من مطبوعات وأدلّة ونشرات ودوريات وغير ذلك.

قلت له "هذا عظيم.... هذه إشادة بجهود الهيئة العظيمة؟ فما هو السبب الذى حدا بك لتصف الأمر كُلّه بأنه تزييف وضحك على الذقون؟"

قال مؤكدًا "لم أنكر جهود الهيئة فى التوضيب والتجهيز والتدريب، ولكن يوجد خلل واضح يذهب بكل هذه الجهود أدراج الرياح!

سألته باهتمام "كيف ذلك، ومن أين يأتى هذا الخلل؟"

قال وعلى وجهه الغضب "الخلل يحدث فى التنفيذ.... الكلام على الورق جميل..... السجلات المطلوب ملأها لا تترك كبيرة ولا صغيرة.... خطوات التقييم واضحة وسليمة، ولكن للأسف إمكانيات التنفيذ شبه معدومة فيلجأ المسئول للفبركة وسد الخانات فقط!

- أكيد هذا المُعَلّم حدّثك عن ذلك بالتفصيل..... ليتك تنقل لى ما قاله.... أنا فى الحقيقة مُهْتَم بهذا الموضوع.

- هذا الأستاذ خاض التجربة من بدايتها، وشهد كل فصولها، وكان المسئول عن تطبيقها، فضلاً عن ذلك فله عين خبيرة، ويتناول الأمور بموضوعية وحرفية.

- عظيم.... فلأسمع ما قاله لك.

- لنبدأ بالمدرسة.... ذكر أن المدرسة تقوم أولاً بتقييم نفسها تقييمًا ذاتيًا (طبعًا على الورق) وتُعطى لنفسها التقديرات التى تؤهلها للاعتماد وفق الشروط التى تضعها الهيئة.

- هذا طبيعى لأن المدرسة تكون مسئولة عما كتبته، وسوف تخضع للتقييم من فريق المُراجعة الخارجية، ويكون عمل لجنة التقييم هو مُطابقة ملف التقديم للواقع الذى ستراه اللجنة خلال الزيارة الميدانية، مع فحص كل الوثائق، وعمل المقابلات الفردية والجماعية.

- ذكر لى أن هذه أُمور تستعد لها المدرسة جيدًا..... وأن من الأمور التى تُثير سُخْرية عامة الشعب..... أنه إذا عرف رئيس الحى بزيارة كبير من الكبراء تحَوّل الحى أو الشارع مكان الزيارة إلى قطعة من الجَنّة..... النظافة المُبْهرة..... الأشجار الباسقة الخضراء التى هبطت من السماء على جنبات الشارع..... الزهور اليانعة ذات الألوان البهيجة، وتختفى فى الحال أكوام الزبالة والمُخَلّفات، وبعد مرور المسئول بدقائق يرجع كل شىء كما كان..... تختفى الأشجار والزهور، وتعود القذارة، وتعلو أكوام الزبالة، وكأن شيئًا لم يكن.

- ما دخل هذا الكلام بموضوعنا.

- سلوك واحد تربّت عليه الأجيال.... نعتنى بالمظهر، ويخدعنا التزويق والتلفيق..... هو سلوك عام ينتهجه المسئول عند تَعَرّض مؤسسته للزيارة..... فيكون الزيف مكان

الحقيقة، وتعلو هامة الخداع، وكل شيء يُصبح تمام..... ماذا تتوقع من سلوك مدير مدرسة تَرَبّى فى ظل هذه الثقافة؟..... ماذا تتوقع أن يفعل وهو هدف لزيارة وتقييم.

طبعًا قبل الزيارة المُرْتَقبة أو أثناءها..... ترى النظافة فى كل جنبات المدرسة..... دورات المياه غاية فى النظافة ورائحة الفنيك تفوح فى جنباتها..... الفصول تتزين بمختلف اللوحات ووسائل الإيضاح..... الطرقات تتزين جوانبها بمختلف المُعَلّقات..... لا تجد لمبة كهرباء محترقة، ولا صنبور ماء عطلان، ولا مقاعد مُحَطّمَة، ولا معامل غير مُرَتّبة، ولا تراب على الحوائط، ولا حديقة مُهْمَلة ولا بلاطة نافرة..... كل شيء تمام وعال العال!

ولكن بعد التقييم ونيل الشهادة..... زيارة واحدة مُفاجئة..... سينكشف الحال، ويرجع الوجه الحقيقى للمدرسة، وسوف يُصاب عضو لجنة التقييم بالدهشة، وسيجد مدرسة أخرى لا تمت للمدرسة وقت التقييم بصلة، وأن الصورة التى رآها كانت صورة مُزَيّفَة!

- ولكن اللجنة تقوم بفحص الوثائق المُقَدّمَة من المدرسة وتتأكد منها وتطابقها بالواقع.

- لا يوجد أقدر منا على ترتيب الأوراق، وتجميعها، وتنميقها وتنسيقها، ولو رأيت كمية الوثائق من أوراق وملفات لأصابتك الدهشة، ولو عرفت أن كتابة أكثرها (٩٠٪) مثلاً..... تم إعدادها، وتجهيزها، وكتابتها فى خلال أسبوع أو أقل، وستجد عدد غير قليل من العاملين فى المدرسة هم الذين جَهّزوها، ولا يعرف أكثرهم ممن وقّعوا بأسمائهم عليها أو أسفلها أى شيء عن مُحتوى هذه الملفات والأوراق، وسوف يأتى على ذهنك سؤال..... "متى يمارس المعلمون أعمالهم الحقيقية؟"

ملء جداول واستكمال بيانات دون الاطلاع على السجلّات أو الكشوف، أو النتائج، ويكون التسليم من قبل اللجنة بما قَدّمَته المدرسة، وهو فى أغلب الأحيان لا يكون مُطابق للواقع.

مع العلم أن أعضاء اللجنة يحرصون على عدم إحداث صدامات مع المدرسة حرصًا على التعاون والاستمرار فى انتدابهم للعمل الذى يجنى كل منهم مبلغ ٢٠٠٠ جنيه فى أربعة أيام، وهو مبلغ ضخم فى حد ذاته، ويكون دائمًا قرار اللجنة بالتوصية من قبل الفريق ككل بالاعتماد!

- ولكن توجد بعض المدارس لا يتم اعتمادها.

- العيب يكون فى قيادة المدرسة..... غالبًا لا تعرف الموضوع معرفة جيدة، وبعضها يكون قد تم إقحامه من قبَل الإدارة التعليمية، وإرغامها على طلب التَّقدّم للاعتماد، ثم التَّخلّى عنها لعدم وجود كفاءات فى الدّعْم الفنّى.

- لا تنسى أيضًا أن من أعمال اللجنة مُقابلة العاملين فى المدرسة، وكل من له علاقة بالمدرسة ويتحاور معهم ويسألهم.

- أولاً.... من المعروف أن هذه المقابلات تتنوّع بين فرديّة وجماعية، وتشمل حوالى ١٤ فئة من المُعلّمين والمُتعلّمين وأولياء الأمور والإداريين والعُمّال والمُجتمَع المَحلّى والمُوَجّهين، ومجلس الأمناء وغيرهم!

الحقيقة أن مُعْظَم من تتم معهم المقابلات يكونوا مُختارين من قبل المسئولين بالمدرسة، ومُدرّبين على الحوارات ونوعية الأسئلة التى ستُوَجّه إليهم من قبل لجنة المُراجعين وهذا ليس صَعْبًا إذ أن الهيئة تقوم بتسليم كل عُضو من أعضاء لجنة المراجعين (ملف العُضْو) ويحتوى على مجموعة من الأسئلة والحوارات التى سَيجريها عضو الفريق، وربّما كان الأشخاص الذين ستَجرى معهم المُقابلات أكثر دراية بهذه الأسئلة والحوارات من عُضْو المُراجعة نفسه!

- الحقيقة.... أنا أراك متأثرًا برأى زميلك، وأصبحت غير مُتَحَمّس لمشروع الجودة الشاملة والاعتماد.

- أنا لم أشهد التجربة بنفسى، ولكنى أنقل رأى زميلى وأنا كما أخبرتك أثق فى حُكْمه، ونظرته الصائبة للأمور..... هو ينادى بأعلى صوته أن نوقف هذه المهزلة فورًا، ونصب اهتمامنا على العملية التعليمية اهتمامًا حقيقيًّا بعيدًا عن المظهرية، ونهتم أكثر بالمُنْتَج والمُستَهْدَف وهو التلميذ، وإذا ما أردنا معرفة الحقيقة عرفناها من خلال متابعة سلوك التلاميذ فى داخل المدرسة وخارجها، ومن خلال نتائج الامتحانات وغيرها.

ويقترح الأستاذ الفاضل صاحب الخبرة الكبيرة، والرؤية الثاقبة المستنيرة إنفاق هذه المبالغ الطائلة على العملية التعليمية، وتحسين أوضاع المُعلّمين بصدق وإخلاص، وأن نكون مُقْتَنعين أن البداية الصحيحة هى المُعلّم، وليس ذلك بصعب لو توافرت النيّة الصادقة حتى يتفَرّغ المُعلّم للبذل والعطاء ولأداء رسالته السامية، ولا نُشْغله بأمور جانبية تُقَوّض عَمَلَه، وتبتعد به عن أداء عمله الحقيقى!

الملاحظ أن سيادتك خلال إطلاق مُبادرة "تعالوا نتَعَلّم" فى إطار الأسبوع العالمى للتعليم للجميع من ٢٩ أبريل إلى ٢ مايو سنة ٢٠١٠ أرجَعْت إصلاح التعليم الأساسى إلى عدد من الإجراءات ليس من بينها المُعَلّم للأسف.

أرجعت ذلك الهدف إلى تطوير المناهج، ودمج التكنولوجيا فى العملية التعليمية، وتطوير طُرُق التدريس وفى التقويم، ولم تذكر المُعَلّم أبدًا..... نفس النظرة السابقة لكل الوزراء السابقين ما عدا طبعًا الدكتور أحمد جمال.

- أنا لا يمكن أبدًا أن أنسى دور المُعَلّم.... كيف ذلك وهو عَصَب العملية التعليمية، إن أكبر دليل هو تطبيق كادر المُعَلّمين.

- يا سيدى.... هذا الكادر الذى تتحدّث عنه لم يُحَقق سوى بضعَة جُنَيهات للمُعَلّم لا تُسْمن، ولا تُغْنى من جوع، ولا تُغْنى عن الدروس الخصوصية التى تكلّمنا سابقًا عن خطورتها على التعليم، وإهدار طاقة المُعَلّم الحقيقية، وتأثير كل ذلك على كل جوانب العملية التعليمية!

- ذكرت لك سابقًا أنها البداية..... أو هى خُطْوَة على الطريق سوف تتبعها خُطوات أخرى..... أنا معك مُقْتَنع بدور المُعَلّم الرئيسى فى تحسين العملية التعليمية.

- وأنا ذكرت لك سابقًا أن الخطوة لن تُجْدى، ولا الخطوات.... المطلوب عاجلاً قفزة تتبعها قفزات.... وليس ذلك بمُسْتَحيل!!

- أكيد لا يوجد شىء مستحيل أمام بناة الأهرام والسد العالى، ولكن الأمر يستدعى التسجيل.

- التسجيل!..... ماذا تقصد بالتسجيل؟

- تسجيل النقاط التى تكلّمنا فيها باستفاضة..... فى اللقاء القادم سوف أُعد ملف نكتب فيه ملخص لكل ما ناقشناه.

- هذه فكرة عظيمة.... ويا ليت تكون النقاط التى نتفق عليها بالترتيب.... أقصد حسب الأولويات، حتى تكون الرؤية واضحة، والأمور مُحَددة.

- إن شاء الله..... إن شاء الله